الفصل الخامس

كاتب الإنشاء

(2): الخصال الأخلاقية والأوصاف الداخلية

قبل أن أنتقل للحديث عما أصفه بالمزايا الأخلاقية والداخلية للكاتب أود أن أستعرض بإيجاز الإطار الذي منه استمدت. فقد بينا سابقاً أن الفصل الأول من كتاب «مواد البيان» قد خصص في قسمه الأعظم لمحاولات ابن خلف حسم مسألة أرجحية الكتابة وأدب الرسائل على جميع الفنون الأخرى وكذلك أفضلية مهنة الكاتب على جميع المهن الإدارية الأخرى، وحديثه عن مسؤوليات الكاتب تكاد تكون حديثاً عن رجل الدولة وخصوصاً حين يصور العلاقة بينه وبين الحاكم والأثر الإيجابي الجيد للكتابة الحسنة في المجتمع، والتوصيف الآتي خير ما يوضح ذلك، حيث يصف الكاتب بقوله:

> «وهو حلية المملكة وزينتها لما يصدر عنه من البيان الذي يرفع قدرها، ويعلي ذكرها، ويعظم خطرها، ويدل على فضل ملكها، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد، والترغيب، والإحماد والإذمام، واقتضاب المعاني التي تقر الوالي على ولايته وطاعته، وتعطف العدو العاصي عن عداوته ومعصيته. على أن بعض المتعصبين قد رجح كتابة الأموال على كتابة الإنشاء بمغالطات أوردها، وتزويرات زخرفها ونمقها، لا تخفى على متأمل، ولا تتغطى على ذي ذهن سليم»[1].

نجد في هذا الوصف ذلك التجاذب القائم بين كاتب الإنشاء وكاتب المال يعود للظهور مجدداً، فقد حدث ذلك في وقت اتسعت فيه الأدوار المختلفة للكاتب ليصبح عددها خمسة عشر دوراً. وكاتب الرسائل اتخذ دوراً واحداً من هذه الأدوار التي كان منها كاتب المالية والكاتب العسكري، والنظام البريدي وضريبة الأرض (الخراج) وكاتب النفقات[2]. ويمكن مقارنة هذا الوضع بوضع كان سائداً قبل نحو قرنين ونصف

القرن من السنين حين لم يعرف إلا خمسة أدوار للكتَّاب[3]. وغني عن القول: إن الزيادة بمقدار ثلاثة أضعاف توضّح اتساع الإدارة في تلك الحقبة، كما أنه من الضروري التمييز عند هذه النقطة بين أوصاف دور كاتب الإنشاء أو كاتب الرسائل ورئيس ديوان الإنشاء Composition Chancery الذي يشرف على نشاط كتابة الرسائل (انظر موضعاً آخر في هذا الفصل يصف أدوار الكتَّاب العاملين في إنتاج الرسائل)، من أجل ذلك نجد بعض علماء العصر قبل الحديث لم يبحثوا إلا في دور رئيس الديوان (ابن الصيرفي، على سبيل المثال)، في حين تحدث آخرون بصورة عامة عن دور كاتب الإنشاء، أو كاتب الرسائل (ابن خلف، على سبيل المثال) وعددوا له سبعة أنواع (انظر أدناه).

يصف ابن خلف كاتب الرسائل بعبارات براقة حيث يقول:

> «ليس في منزلة خدم السلطان والمتصرفين في مهماته أخص من كاتب الرسائل، فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه»[4].

وينتقل بعد ذلك ليصف الوسائل المختلفة التي يكون فيها الكاتب قلب ولسان الحاكم وأذنه ويده.

في كتابه الذي فيه يصف الدولة الفاطمية يقدم لنا ابن الطوير وصفاً لا يقل أهمية عما سبق للمنصب المتميز لكاتب الإنشاء، حيث يقول - على سبيل المثال -: «وكان هذا المنصب لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجلّ كتَّاب البلاغة... وهذا أمر لا يصل إليه غيره» ويقول أيضاً: «ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من الكتاب إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء الشيوخ وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسند والدواة العظيمة الشأن ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة»[5]. وتظهر وضعية الكاتب ومنزلته أيضاً بالثياب التي يرتديها[6] فهي متميزة عن كاتب غير موظف مثلاً. ولم يكن رداء الكاتب الموظف مصنوعاً من قماش أكثر

ثمناً من رداء الكاتب غير الموظف فقط، بل إن الرداء والقبعة التي يرتديها الكاتب غير الموظف تحت العمامة تشبه تلك التي يرتديها المسيحيون من الأقلية، إن التمييز في جودة الأردية كان - دون شك - جزءاً متعمداً للدلالة على المنزلة الوضيعة للكاتب غير الموظف مقارنة مع نظيره الموظف. كما أن العلاقة بين الكاتب والأفراد الآخرين في الحاشية الملكية جزء مهم جداً في حياة الكاتب، كما سنتحدث عن ذلك في موضع آخر من هذا الفصل. يؤكد القلقشندي أن منزلة الكاتب كانت موضع إجلال واحترام كبيرين إبان العصر المملوكي، فهو يقول: لا أحد يعمل في ديوان العسكر أو الوزارة أو في الديوان الخاص قادر على الاضطلاع بمسؤولية الشارة الملكية كما يفعل الكاتب[7].

عند تفسير الأوصاف المفصلة التي قدمها القلقشندي للمزايا المطلوب توافرها في الكاتب من المهم التمييز بين «الصفات»[8] والخواص الأخلاقية (المكتسبة) أو كما كان يعرف في ذلك العصر بـ «الأدب» ففي بعض الحالات قد يبدو التمييز بينهما دقيقاً تصعب ملاحظته، ولكن يجدر التمييز بينهما لما له من أهمية خاصة من المنظور الإسلامي لما هو جيد أصلاً وبالفطرة وما هو جيد ولكن يجب أن يكتسب.

الصفة الأولى بين الصفات العشر الأساسية[9] التي عددها القلقشندي التي يجب أن يعرف الكاتب بها هي - بلا شك ودون استغراب - الإسلام، وذلك «ليكون ما يكتبه ويمليه قابلاً للإيمان به». فالكاتب، بالإضافة إلى أشياء أخرى، هو «الشخص الذي يخيف العدو بما لكلماته من أثر، وهو الشخص الذي يكسب القلوب برقة رسالته، ولا سيما أن أنبل الموضوعات طراً التي يكتب الكاتب فيها هو دعوة الناس لدين الإسلام[10]. ويضيف القلقشندي إلى ذلك قوله: إن الكافر لا يمكن أن يعيّن في هذا المنصب؛ ذلك أنه «قد يكون عيناً للكافرين ضد المسلمين». وبعد أن يؤكد أن هذا الشرط نفسه ينطبق أيضاً في إطار قانوني، أي عند تعيين القضاة والولاة يقول القلقشندي: إن هذا الشرط نفسه يجب أن يطبق بصورة صارمة ومتشددة عند تعيين كاتب الحاكم؛ ذلك أن هذا الكاتب أكثر فائدة له ويحتمل أن يكون أكثر ضرراً. ويؤكد ابن الصيرفي هذا القول من أوجه عديدة مؤكداً أن الإنشاء أو الرسائل قد تكون خالية من المعنى وتفتقر إلى الجمال والزخرف لو أن الكاتب كان من غير المسلمين أو ذمياً على وجه الخصوص. فهو يرفض

obeikandi.com

رفضاً قاطعاً تعيين الذمي كاتباً حتى من قبل أن يناقش مسألة الجانب الإسلامي في هذا التعيين. فيقول: إذا كان ذمياً لن يستطيع أن يتحدث في رسائله عن «حقيقة الله التي لا تقبل الجدل، وما هو أكثر من ذلك أن رسائله ستكون» فارغة من أفضل الكلام عفة، وخالية مما ينعم به من يؤمنون بالإسلام وبعيدة عن صفة الكمال»(11). وسوف نبين فيما بعد كيف أن شرط أن يكون كاتب الإنشاء مسلماً لم يكن قابلاً للنقاش في عصر القلقشندي على الأقل، وأن غير المسلمين لم يذكروا في أحسن الحالات إلا عند الحديث عن كيفية توجيه الرسائل لهم، ومع ذلك، وفي موضع آخر من كتاب صبح الأعشى يذكر القلقشندي أن الكاتب في مصر في عهد الفاطميين كان مسلماً أو ذمياً؛ أي شخصاً حراً غير مسلم يعيش في بلاد الإسلام(12).

وينبغي أن نتذكر أن ابن الصيرفي عاش في عصر كان فيه المذهب الشيعي يعدّ أكبر تحد للمذهب السني. فكان لزاماً أن تعكس المؤلفات الخاصة بالكتاب هذا التحول المهم، ولذلك كان كتاب ابن الصيرفي خير مثال لذلك، فهو يقول: إن الكاتب (أي رئيس الديوان في هذا الإطار) يجب أن يكون «من دين الحاكم» ومع أن كلمة الإسلام توحد المسلمين جميعاً فلكل مسلم مذهبه الذي يميزه عن الآخرين؛ لكن ما يشير إليه قد أفضى إلى خلافات خطرة فيما بينهما كما يقول. لذلك فهو يضيف ما يأتي:

> «كما أن المرء المؤهل لهذا المنصب يجب أن يكون مسلماً، فإنه يجب أن يكون في الوقت نفسه من مذهب الحاكم الذي به يتميز عن مذاهب المسلمين الآخرين، وذلك ليكون [الكاتب] مواظباً ومثابراً في خدمته، وبذلك يكون الحاكم قد أحسن الاختيار لنفسه..»(13).

لا ينكر أحد تلك المحاولات التي قام بها ابن الصيرفي فيما تقدم ليبرر موقف أتباع الطائفة الشيعية، ولا سيما أنه بقوله هذا يضع المعايير الدينية المقبولة في الكتيبات الخاصة بمشترطات عمل الكاتب بطريقة غير مسبوقة.

وأما الصفة الثانية من الصفات العشر الأساسية المطلوب توافرها في الكاتب فهو شرط «الذكورة». ومرة أخرى يؤكد القلقشندي أن هذا الشرط هو الحد الأدنى لما يجب توافره عند كاتب القاضي على سبيل المثال، لذلك فمن باب أولى أن يتوافر عند كاتب

الحاكم، ولكن على الرغم من وجود دلائل متوافرة بأن عائشة، إحدى زوجات النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] كانت تتمتع ببعض المواهب الأدبية المطلوبة في الكاتب إلا أن القلقشندي يقول: إن الرسائل التي تتضمن مدخلات منها لا بد أنها استفادت من إملاءاتها لبعض عناصرها الرئيسة وليس من كتابتها هي لتلك الرسائل، غير أن الكلمة الأخيرة حول هذا الموضوع تعود إلى عمر بن الخطاب (ت 23هـ/ 644م) أول الخلفاء الراشدين الذي قال ما يأتي: «اجتنبوا إعطاءهن [مسؤولية] الكتابة ولا تعطوهن مقراً في الحجرة [الإدارة]». ويبدو أن ما يؤيد هذا الدليل غياب النساء عن أي ذكر في مصادر السيرة الخاصة بطبقة الكتاب في المجتمع الإسلامي طوال العصر قبل العصر الحديث.

والصفة الثالثة هي الحرية، أي ألّا يكون الكاتب عبداً «فالعبد لا يمكن الاتكال عليه في جميع الأمور ولا يمكن الوثوق به في كل الظروف»، والصفة الرابعة هي بلوغه سن الرشد، والخامسة هي النزاهة والاستقامة وهي صفة مهمة على وجه الخصوص؛ لأن الكاتب يعين قاضياً بسبب علو منزلته ليكون مسؤولاً عن أرواح الناس وأموالهم، إن أخطأ عبر تفسير خاطئ لكلمة واحدة على سبيل المثال فقد يقوده خطؤه «لإيذاء من لا يستحق أن يؤذى ولمنفعة من يجب أن يؤذى». والمعنى الفقهي الإسلامي الذي تتضمنه هذه العبارة واضح ومفهوم، أما الصفة السادسة فهي [معرفة جيدة ومعمَّقة] بالبلاغة. وسوف نتحدث عن ذلك بمزيد من التفصيل في الفصل السادس، الصفة السابعة هي فيض من الذكاء وغزارة في الحكمة، كان القلقشندي يشدد كثيراً على أهمية هذه الصفة، فهو يقول: «من لا ذكاء له لا يفيد». ويقول أيضاً: «إذا كان كثير الذكاء والحكمة فإنه يرتب الأشياء في رسائله في مواضعها [الصحيحة]... ويخاطب كل حاكم طبقاً لما تقتضيه المناسبة». وفي كثير من المواضع ترتبط هذه الصفة بالصفة التي سبقتها، فتؤكد العلاقة بين فن التواصل والذكاء وتوضح أن الطبع والموهبة المطلوبة في الأولى غير كافية بذاتها لإنتاج كتابة من مستوى رفيع، أما الصفة الثامنة فهي المعرفة بمواضع الواجبات الدينية والعلوم الإنسانية، وتشمل الصفة التاسعة خواص قوة القرار والحسم وأعلى مستوى للعزيمة والتصميم ونبل الروح، والصفة الأخيرة هي الكفاءة

والاختصاص في كل ما له صلة بمسؤولياته؛ ذلك أن «المرء غير الكفء يجلب الضرر لبلاده ويخلق ضعفاً في شؤون المسلمين وربما ينجم عن عدم كفاءته نتائج ضارة، أو قد يقود ضعفه المسلمين إلى الشغب والاضطرابات».

وهنالك أيضاً مجموعة أخرى من الصفات والمزايا عدّدها القلقشندي وقال عنها: إنها صفات «غير رسمية» أو «تقليدية» أو كما وصفت باللغة العربية بالصفات «العرفية» وتتعلق على نحو رئيس بالمظهر والفصاحة أو بالاثنتين معاً، بعض الأوصاف البدنية للكاتب المثالي قد تكون كثيرة التفاصيل ومع أنها تبدو قصصية السرد إلا أنها تعطي فكرة حول طريقة تطور هذه الأوصاف، أو لعلها بقيت ساكنة على حالها حقبة طويلة من الزمن عبر التاريخ، فمثلاً الوصف الذي ينسب للشيباني (منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) للكاتب المثالي يركز كثيراً على مظهره الخارجي، وهذه نزعة يمكن عدّها مرتبطة بالعصر العباسي، في حين يؤكد ابن مماتي (ت 605- هـ/ 1209م) على الصفات الفكرية والشخصية، لكنَّ أياً من هذين المؤلفين لم يستبعد الصفات الفكرية أو البدنية، إنما التأكيد مختلف وبيّن، وهنالك مقارنة على جانب كبير من الأهمية بين رجلين في مستوى متكافئ من البلاغة والفصاحة إنما في مظهر فيزيائي مختلف تنسب إلى سهل بن هارون (ت 215هـ/ 830م) وكان كاتباً عند الخليفة المأمون في العصر العباسي. فهو يقول: إن غالبية الناس أكثر انجذاباً إلى رجل صغير وضيع هزيل غير جدير بأن يذكر، وذلك بسبب كفاءته في الكلام أولاً من انجذابهم إلى رجل أنيق حسن المظهر. فإعجابهم به سوف يزداد بعدئذ لأن عذوبة كلامه ليست كما كانوا يتوقعون، و«عندما يتضاعف جمال كلامه في قلوبهم يكبر في عيونهم». إن قول ابن سهل هذا يستند في جوهره إلى حب العرب للشيء غير المعتاد الذي هو في نظرهم علاقة إبداع كما وضحت ذلك في الفصل الرابع، عند الحديث عن «الغريب» في الكلام وفي الكتابة.

يوزع القلقشندي هذا الصنف الثاني من الصفات التي تضم «قواعد السلوك» أو «الأخلاق» عند الكاتب أو كما أسماها «الأدب» في نوعين اثنين. أولهما: تلك الصفات المتعلقة بالسلوك الحسن والمعاملة النزيهة، وضمن هذا النوع تندرج الصفات مثل: الاعتماد على مخافة الله عند إخفاء المعلومات أو التصريح بها والسعي للثواب الذي

يمنحه الله تعالى عبر رضى الحاكم وما ينعم به الله من حسنات مضاعفة، وهذا هو الهدف الأكثر صواباً من كل الأهداف، ويتحقق عبر نية الكاتب السليمة في كل ما يضطلع به من مسؤوليات في شؤون الحاكم، ومن قواعد السلوك هذه قاعدة تقضي باجتناب الشبهة والتنزه عنها؛ ذلك أنها «تغضب الله وتهدم مهابة المرء». ويوضح القلقشندي في هذا السياق أن الكتاب هم في أفضل موضع لتحقيق هذه الغاية بسبب وضعهم الخاص عند السلطان، وهو يؤكد ثانية على علو مركز الكاتب على مركز القضاة والولاة فيقول إن الكتاب يختارون دوماً من علية قوم الفقهاء وعلماء الدين الأتقياء والمبرزين، فهم يتميزون عن القضاة والولاة بما يأتي: معرفتهم بالعلوم الإسلامية وبفضل الآداب والارتياض بآداب الملوك وعشرتهم ورسوم صحبتهم وتمسكهم بالاعتدال وتجنّب الإسراف وصون ذلك في كل ما له صلة بأعمال الحاكم التي هم مسؤولون عنها، وعبر ذلك يتعين عليهم التعفّف عن المطامع الذميمة والمطاعم الوخيمة، والترفع عن المكاسب اللئيمة، إضافة إلى ذلك يتعين عليهم أن يكون الواحد منهم جميل السيرة عند الرعية.

ومن قواعد السلوك أيضاً قاعدة تقضي بألا يسعى الكاتب للحصول على المديح، وأن يكون مقتصداً في السعي للمسرات؛ ذلك أن «تقيد المرء بما يحفظ له رجولته يعد من الأخلاق القويمة والنبيلة». لكن القلقشندي بأسلوبه الذكي الطريف يؤكد أنه لا يلغي جميع الحقوق في هذا المجال فهو أولاً وآخراً عضو كامل العضوية في طبقة الكتاب. ومن ثمّ أكد أنه لا أحد ينتظر من الكاتب أن يبتعد عن المسرات الدنيوية، كما يوضح الشاهد الآتي:

> «ولكن لا يكلف ترك الملذات جملة؛ إذ لا بد لكل أحد من ذوي الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها لما جبلت عليه الطبائع من الميل إليها والرغبة في الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهي رتبته».

ويضيف: «وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك، ومشاركتهم لهم في آدابهم، لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان»[14].

يتضح شيئان من مجموعة قواعد السلوك الموضحة آنفاً، أولهما: إن هذه القائمة تتضمن بعض العادات الحميدة الرئيسة ومسائل سلوكية يجب على الكاتب أن يتعلّمها ويطبّقها، والقسم الأعظم منها يتعلق بمسائل أخلاقية، وهي جزء مهم جداً لما يحمله معنى الأدب، أما الشيء الثاني فيتمثل في كون القلقشندي ينتهز هذه الفرصة ليعرض الطموحات الأخلاقية للكاتب في ضوء إيجابي وبذلك يرفع من شأنه هو عبر تعداد صحيح وشرعي لمتطلبات شخصيته ومهنته.

أما الصنف الثاني من قواعد السلوك التي يتحدث عنها القلقشندي فمتصل بعلاقة الكاتب مع أولئك الذين هو على صلة بهم، والمبادئ العامة لهذا الصنف تتعلق عموماً بالدبلوماسية، والمفتاح لهذا الجزء كلمة عربية هي «العِشرة». تتضمن هذه اللفظة مفهوماً عربياً وربما إسلامياً، يتعلق بمستوى المودة الناجمة عن قضاء وقت مع شخص ما وبناء صحبة تقوم على الثقة والإخلاص، وواقع الأمر أن أول مبادئ المودة يشتمل على كون الكاتب مجداً ومجتهداً في قيامه بأعمال الحاكم وحفظ أسراره، وهذا مبدأ هو الأكثر جدارة واستحقاقاً من مبادئ الأخلاق والسلوك وهو الذي يحقق النجاح والازدهار لمن يتمسك به، وإفشاء الأسرار كما يقول القلقشندي صفة بشرية كثيرة الشيوع لذلك ينبغي الحرص ما أمكن على عدم الكشف عن الأسرار، وكما قال ابن الأثير: «يجب أن يكون صدره قبراً لما يودع فيه»، يجب أن يجعله طبعه ينسى ما يسمع عندما يحضر جلسات الكتابة ولا يبوح به عند الغضب[15]، أما القاعدة الأخرى للسلوك في هذه المجموعة فهي الإعراب عن الشكر؛ ذلك أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها يكافئ المرء الحاكم على ما قدمه له، وذلك بخلاف الأصدقاء، الذين يمكن التعبير عن الشكر لهم بوسائل مختلفة، وتوجيه الشكر للحاكم أكثر ضرورة من شكر المرء لأقرانه، والوفاء قاعدة أخرى من قواعد السلوك، فالوفاء هو «السبب الذي يجعل الحاكم يرغب في صحبته [الكاتب]». يظهر الوفاء بأساليب مختلفة، منها تقديم النصيحة، ومنها بذل الاجتهاد لما فيه مصلحة الحاكم، لكنَّ للوفاء شروطاً أهمها وقوف الكاتب إلى جانب الحاكم في كل موقف، سواء في أوقات الفرح حين يتولى الحكم أو عندما يعزل، وعليه أيضاً أن يحرص على عدم تحويل

مشاعره الودية ومحبته إلى حاكم آخر يرى فيه منفعة له، كما يجب عليه أيضاً أن يبتعد عن التكبر والغطرسة «ولا سيما أن التكبر أمام الحاكم والرئيس ميدان من أكبر ميادين الدمار وأحد الأشياء التي تسبب توقف النعم». كما يجب عليه أيضاً أن يتمسك بقواعد السلوك الخاصة بالخدمة، ألا وهي الاجتهاد والدأب فهي أفضل طريقة للوصول إلى المنزلة الرفيعة وتحقيق الأهداف، وخير طريقة لتحقيق هذا الدأب أن يكون قريباً من الحاكم إن طلبه يجده في كل حين، أما إن لم يكن قريباً حاضراً في وقت الحاجة فسوف ينال غضب الحاكم ولومه ولن يتخلص منهما حتى لو اعتذر، وإضافة إلى ذلك، قد يرغب الحاكم في استبداله بشخص يساعده في وقت الحاجة حتى لو كان ذاك الشخص غير ماهر ولا يتمتع بمؤهلات عالية، ولكن إذا أسرع الكاتب وقدم العون اللازم فسوف يحظى برضى الحاكم وعطفه، عند هذه النقطة ينبغي التوقف قليلاً لنرى رأي ابن المقفع، الذي أعدم في نحو منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وذلك لأسباب سياسية بالتأكيد. لكن إسهامه الأول في فهمنا للعلاقة بين الكاتب والحاكم لا يقدر بثمن، وكذلك رأيه الشامل عن الصداقة، وهذا ما ساعدنا في استخلاص الطريقة التي بها يجب أن ينظر إلى أدب الرسائل فيما مضى، وفي هذا الإطار يقدم لنا لاثام Latham تحليلاً ممتازاً لحياة ابن المقفع وأثره في أوائل النثر العربي، ولكن الفكرة الأكثر أهمية في صلتها ببحثنا هذا ما قاله ابن المقفع عن الصداقة:

> «ولسوف تجني مكافأة جيدة إذا كان صديقك ورفيقك شخصاً أكثر منك علماً فتكسب العلم من علمه، أو شخصاً أكثر منك قوة فيحميك بما لديه من قوة»(16).

هذا الملخص الوافي والباكر لأهمية الصداقة -ولا سيما التركيز على نوع الأصدقاء الذين يجب أن يختارهم المرء- يعطينا لمحة كاملة لما حاولنا توضيحه في الفصلين الرابع والخامس من هذه الدراسة، فالعلاقة الناشئة بين الكاتب والحاكم ليست علاقة تقوم على ولاء تصادفي، أو على مجرد ارتقاء طبيعي للكاتب ليصبح في منصب هو من أكثر المناصب أهمية في البلاد، والأمثلة الآتية تضيف المزيد من التأكيد على ذلك.

من قواعد السلوك وآداب حسن العشرة المهمة؛ أن يقوم الكاتب بتحية الحاكم أو الرئيس سواء كانا على انفراد أم أمام العامة؛ وذلك بإظهار المزيد من الإجلال والوقار له، وكذلك بأن يكون سلوكه طبقاً لمزاج الحاكم ورغبته. «فإن مال إلى الانبساط أطلق عنانه فيه واجتنب فحش القول، وإن أظهر الانقباض ذهب مذهبه». وينبغي أن يكون مقتصداً في لباسه، فلا يرتدي ملابس مشابهة للحاكم ولا ملابس مشابهة لعامة الناس، وألا يكون ملبسه مزخرفاً كالحرير المزركش بالقصب والبروكار، فهذا طراز ينفرد به الحاكم إلا إذا تشرف بأن يطلب إليه ذلك، وينبغي أن يهتم كثيراً بالنظافة فلا تقع عين رئيسه على دنس في أثوابه ولا يجد منه كريه رائحة، وأن يستخدم أفضل الطيب والبخور، «فإن الملوك ترى أن من أغفل تعهد نفسه كان لغيرها أشد إغفالاً» وأما القاعدة الأخيرة في هذه القائمة فهي اجتناب التباهي بالفصاحة وكثرة الكلام عند مخاطبة رؤسائه، بل يجب عليه أن يخاطبهم بألفاظ تدل على معانيها بسهولة مع غض من صوته وخفض من طرفه وسكون من أعضائه»[17].

بعد هذا البحث يعدِّد القلقشندي بعض القواعد الخاصة بسلوك الكاتب في تعامله مع أقرانه ومن هم في منزلة مثل منزلته، وذلك تحت عنوان «آداب عشرة الأَكْفَاء والنظراء» وهو في بحثه هذا يعتمد كثيراً على ابن خلف الذي ذكر أن الطريقة للتصرف الحسن في هذا المجال تتمثل في تحقيق الموافاة في الإخاء والمساواة والصدق، وبعد ذلك يقدم وصفاً موجزاً لطريقة التعامل مع الرعية، ويقصد بهم أولئك الكتاب الذين هم من منزلة أدنى من منزلة الكاتب، ومع أن هؤلاء أدنى منزلة إلا أنهم يجب أن يعاملوا باحترام وأن يعطوا الوقت الكافي للراحة والرفاهية ليكونوا أفضل قدرة على القيام بخدمة الكاتب الرئيس؛ وذلك بسبب ارتباطهم الوثيق بالكتابة، ويجب أن تكون هذه الخدمة قائمة على الصداقة، وليس على الخوف، كما يقول ابن خلف، أما الفئة الرابعة من الأشخاص الذين يصف القلقشندي فيهم مودة للحاكم فهم الرعايا، يقول ابن خلف: إن هذه مسألة ذات فائدة كبرى: «إذ لا يطيب عيش مع بغض الرعية له ونفورهم عنه، وإن علت عند السلطان رتبته وارتفعت طبقته وظن بنفسه الاستغناء عنهم». ويجب عليه أن يركز انتباهه على أن يتصالحوا معه بهدوء، كما يفعل هو مع الحاكم وسياساته،

وعلى هذا النحو «تصح له رتبة التوسط بين الطبقتين، وبذلك ينجو بنفسه من طعن الطاعن ولوم اللائم، ويبرأ من البغض والشحناء، ويوجههم نحو التآلف والمحبة بعيداً عما يمكن أن تسرع إليه الطباع الرديئة من الحسد والإيذاء»[18]. إن العلاقة بين الكاتب ومن هم دونه منزلة مهمة جداً، ليس فقط من أجل علاقات إنسانية حضارية بل لأن العلاقات الجيدة بينهم مفيدة للدولة أيضاً، وقد قال أحد العلماء في ذلك ما يأتي:

> «الكاتب غير معصوم من الخطأ واللحن وسبق القلم، وعيب الإنسان يظهر منه لغيره ما لا يظهر له، فما أبصره من لحن أو خطأ أصلحه ونبّه كاتبه عليه فيحذر من مثله فيما يستأنفه، فإن تكرر منه زجره عن ذلك وردعه عن العودة إلى مثله؛ إذ الغرض الأعظم أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطاً ولفظاً ومعنى وإعراباً حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً فربما زل الكاتب في شيء فيزل بسببه متولي الديوان، بل السلطان، بل الدولة بأسرها»[19].

وتلخيصاً لما ذكرناه حتى الآن نقول: إن الخصال المطلوبة في الكاتب يمكن وضعها في ثلاث فئات هي الخصال الفيزيائية والفكرية والأخلاقية. وهي تعين الكاتب في أدائه لواجباته المهنية بما في ذلك علاقاته الشخصية مع من حوله، وحسن العشرة ومكارم الأخلاق خصلتان ضروريتان للكاتب؛ إذا أريد له أن يقوم بواجبه لما فيه مصلحة الدولة.

في حديثه عن رئيس ديوان الإنشاء يقدم القلقشندي لمحة تاريخية موجزة عن الديوان ويتبعه بتوصيف لاثني عشر واجباً من الواجبات الإدارية المهمة المنوطة بمنصب رئيس الديوان. وسوف أتحدث فيما يأتي عن عدد قليل فقط من الأمور المتصلة بهذه الواجبات، فقد اضطلع رئيس ديوان الإنشاء بسلطة مهمة في عصر القلقشندي. وبالإضافة إلى أنه قد نال من السلطان واجب التوقيع على العرائض والرسائل فقد أسند إليه أيضاً واجب قراءة كل رسالة ترد إلى السلطان، تشير المصادر أن هذه المهمة كانت تنتقل إليه على نحو متزايد بعد أن ازداد انشغال السلطان وتزايد مقدار انتشار الرسائل، وبعدت المسافة بين البلدان والحكومات التي تتبادل الرسائل، وكان في نطاق

مسؤوليته أيضاً الرد على رسائل بحاجة إلى ردّ فوري، يقول أبو الفضل الصوري في ذلك ما يأتي:

«ومن أهم ما يلزم صاحب هذا الديوان إشعار الملك بما يراه من الآراء الصائبة ويعلمه أن من أعظمها خطراً أن يصدر جواب كل كتاب يصل إليه في يومه ولا يؤخره إلى غده»[20].

وتأريخ الرسالة له أهميته في الإطار القانوني، على سبيل المثال هب أن كتاباً لا يحمل تاريخاً فإنه «لا يُعلم بعد العهد بما ذكر فيه من قربه» وقد تتفاقم هذه المشكلة إذا كانت الرسالة سترسل عبر مسافات بعيدة، وعملية الرد على الرسائل لم تكن لغرض الشكليات بالطبع. بل إن ذلك يجلب الاحترام العظيم للملك ويبين أنه يسيطر سيطرة كاملة على شؤون الدولة ويعلم خفاياها، وهناك جانب مهم من واجبات رئيس ديوان الإنشاء؛ ذلك أنه يراقب عبارات التبجيل الخاصة بالحكام وغيرهم من الشخصيات المهمة، وقصة عبارات التبجيل للحكام قصة بالغة التعقيد كما سأوضح ذلك في الفصلين الآتيين؛ لذلك كان من المهم أن يوكل إلى الكاتب هذا الدور لضمان أن ينال كل شخص ما يليق به من عدد عبارات التبجيل ونوعها، وعلى رئيس الديوان أن يكون حذراً في إسناد عبارات التبجيل للأعضاء الآخرين من طبقة الكتاب.

كان رئيس ديوان الإنشاء يقوم أيضاً بدور رئيس التحرير بخصوص بعض الوثائق مثل المراسيم أو القرارات غير المغلقة (إبان العصر الفاطمي)، وبراءات منح الأراضي (في العصر المملوكي)[21] والمراسلات العامة الصادرة عن الديوان. ولم تكن واجباته الأخرى أقل أهمية، فهو المسؤول عن الإشراف على جميع المسائل المتعلقة بالبريد والرسل وله دور مهم أيضاً فيما هو معروف على ما يبدو بنظام سعاة البريد. فانتقاء السعاة وتقديم التعليمات لهم مهمة دقيقة جداً، وقد قيل في ذلك إن الدور الدبلوماسي للرسول، أو الموفد، أكثر أهمية من مضمون الرسالة نفسها التي يحملها. وقد أكد هاشماير Hachmeier ذلك بقوله: «وهكذا، الموفد المبعوث، وليس الرسالة، هو الذي كان في مركز الوسط من المفاوضات الدبلوماسية، حيث كانت الرسالة الخطية الدبلوماسية مجرد تمهيد لها»[22]. إضافة إلى ذلك كان الكاتب أيضاً ذا أثر فاعل

في انتقاء الجواسيس، والواقع أن مسؤوليته في هذا المجال أكبر كثيراً مما هي في الأمور البريدية؛ ذلك أن «الرسالة قد توجه إلى صديق، كما يقول القلقشندي أو قد توجه إلى عدو، أما الجاسوس فلا يوجه إلا إلى العدو»[23]. وقد تضمنت واجبات رئيس ديوان الإنشاء أيضاً مسؤولية الاعتناء بالمنارات التي تضاء في أوقات الحرب بين التتار وملوك مصر وذلك للتحذير من هجمات وشيكة، وأيضاً مسؤولية ما كان يدعى «ضباط الحرائق» الذين إليهم توكل مهمة إشعال النيران في الحقول المجاورة لمناطق يسيطر عليها التتار؛ من أجل ذلك كان هؤلاء يبللون قطع القماش بالزيت ويربطونها في ذيول الأفاعي التي تمضي بها في الحقول دون سيطرة من أحد فتنتشر النيران في كل جزء منها.

من أجل ذلك كانت المهام المنوطة برئيس ديوان الإنشاء، أو كبير الكتبة - إن صح القول - مهامَّ واسعةً جداً إلى حد ما في العصر الذي عاش فيه القلقشندي، فهو ليس فقط المشرف على الأمور الإدارية ذات الصلة المباشرة بالكتابة والرسائل المكتوبة، بل كان أيضاً الشخص المسؤول عن حسن وسلامة إدارة شؤون الدولة، ولا سيما عبر مدخلات يقدمها في مسائل تتعلق بالعاملين[24]. كان تحت إدارته سبع درجات من الكتبة، كل واحد منهم يضطلع بمسؤولية تختلف اختلافاً يسيراً عن الآخرين، فكانت هذه الفئات عموماً كما يأتي: النوع الأول هو الكاتب المسؤول عن وثائق الدولة الرسمية (وكان يقال عنه كاتب ينشئ ما يكتب من المكاتبات). فهو يكتب المراسلات ورسائل التعيين (الولايات) ويشترط فيه توافر صفات مماثلة لصفات رئيس الديوان بما في ذلك سعة العلم والمعرفة، أما النوع الثاني فهو الكاتب المسؤول عن إنشاء الرسائل للملوك بالنيابة عن السلطان، والنوع الثالث هو الكاتب الذي يهتم بصفة رئيسة بالمراسلات الموجهة إلى الأعيان والولاة في الأقاليم، وكذلك النواب والقضاة وغيرهم، وأيضاً رسائل التعيين (أو التقليدات) لأولئك الأشخاص الذين تناط بهم واجبات من مستوى أدنى ووثائق للمرور السليم (أو الأمانات) وأيمان الولاء، وطبقاً لما يقوله القلقشندي فإن هذا النوع من الرسائل هو الأكثر شيوعاً، لذلك فالكاتب المسؤول عن القيام بهذه الواجبات يجب أن يكون سريع الكتابة وحسن الخط، النوع الرابع هو الكاتب

المسؤول عن الوثائق المفتوحة وغير المعنونة وبراءات منح الأراضي (أو ما كان يسمى المنشورات) ورسائل المشاعر الودية (أو الكتب اللطاف)[25]، ونسخ جميع المراسلات. فهذا النوع من الكتاب مرتبط بالنوع الذي سبقه، ولكونه يستلزم عملاً كثيراً يفوق أي عمل آخر في الديوان فقد احتاج الكاتب إلى مساعد له. النوع الخامس هو الكاتب الذي ينسخ النسخ وهو دور يقتضي حسن الخط لتدوين الوثائق التي ينشئها الكاتب المسؤول عن وثائق الدولة الرسمية مثل الأوامر الصادرة عن الحاكم إلى من يخلفه في الحكم (وكانت تسمى العهود) أو البيعات. يقول أحد العلماء البارزين من النادر أن يجد المرء كاتباً يتقن فن البلاغة وفي الوقت نفسه يكتب بخط جميل، ومن هنا برزت الحاجة لشخص يتولى عملية النسخ ويهتم بهذه الموضوعات، وقد كان هذا الاهتمام بالوثائق في نظر الجميع على أنه ذو فائدة كبرى للدولة، أما الفئة السادسة فهي فئة الكاتب المحقق للنسخة، أو المحرر، وهو مسؤول عن التدقيق اللغوي للنص. وأما الفئة الأخيرة فهي الكاتب الناسخ الذي يدوّن السجلات[26].

إلى جانب ذلك كان ثمة شيء من المرح في الطريقة التي بها ينظر الكاتب إلى دوره. ويمكن مشاهدة دلائل ذلك في قائمة من التصنيفات وضعها المقدسي في كتابه عن العلوم الإنسانية في الإسلام، والفئات السبع تعدّ نماذج لكتاب من حيث قدرتهم على الكتابة وقائمة الأسماء تتضمن ترتيب هذه الفئات بحسب قدراتهم المتباينة -وبعضها يبعث على السخرية. ففي رأس القائمة يأتي الكاتب «المثالي»، وبعده الكاتب «الضعيف» الذي يتقن الإنشاء والإملاء لكن خطه سيّئ. ثم الكاتب «الأبكم» صاحب الخط الجميل لكنه لا يكتب الإنشاء ولا يملي، وبعده الكاتب «جامع الرقع» وهو الكاتب الذي ليس له عمل سوى أن يجمع قطعاً أو رقعاً صغيرة من الإنشاء ويضمها معاً، ثم الكاتب «المعوّق» الذي يعتمد على ذاكرته الجيدة لكنه لا يستطيع أن يكتب قطعة إنشاء، ثم يأتي الكاتب «المعكّر» وهو «الذي في كتابته يمزج اللآلئ بالروث فيفسد جمال النص». وأخيراً الكاتب «الصموت» الذي يشبه الحصان في ترتيبه الأخير في السباق، أي الرجل الذي يصل إلى هدفه ولكن بعد عناء وجهد كبيرين[27].

ولنمعن النظر الآن بمزيد من التفصيل في اثنتين من الخصال الداخلية الأساسية للكاتب، أُولاها «الطبع» أو «الميل الفطري الطبيعي» أو لنقل «الموهبة» وقد ناقشناها آنفاً في الفصلين الثاني والثالث. ومن المهم بادئ ذي بدء أن نذكر القارئ بأنه على الرغم من أن أصول هذا المفهوم تكمن في الشعر إلا أن ابن خلف قد درس الموضوع قبل ابن الأثير بنحو ما يزيد على قرن من الزمان. ففي مطلع الفصل السادس من كتابه «مواد البيان» يقول ابن خلف: إن «الموهبة الفطرية» و«الميل الطبيعي» هما الركنان الأساسيان اللذان عليهما تقوم هذه الصنعة الجليلة [الكتابة] وهما المبدأ الناظم لها، ومع أنه يذكر كلمة «الطبع» في عنوان الفصل إلا أن التركيز الرئيس في مضمون الفصل يدور حول «الغريزة» التي تتضمن معنى الصفة الطبيعية الفطرية، والعبارة الآتية تلخص ما يقوله ابن خلف في ذلك:

> «قد يسعى المرء جاهداً لتعلم مبادئ حسن العشرة ولا يألو جهداً في اكتساب [المعرفة] في العلوم [الإسلامية]، لكنه في الوقت عينه لا يملك «الطبع» لتأليف الكلام[29]، لهذا سيكون كل ما اكتسبه عديم النفع له، أما إذا كان طبعه يخلو من الأخطاء وطريقة تفكيره سليمة فيستطيع أن ينضم إلى أوساط أولئك المتخصصين في هذه الصنعة حتى لو كان يفتقر إلى المعرفة المكتسبة [بتلك العلوم].

وحسب ما يقول ابن خلف فإن وفرة الطبع عند بعض الأشخاص وافتقار الآخرين إليه أمر عسير تفسيره، وهو بعبارة أخرى «هبة إلهية»[30] وهنا نجد ابن أبي إصبع يؤيد هذا الرأي حين يقول:

> «من الناس أشخاص هم أكثر إبداعاً بالبديهة مما هم في الروية [التفكير والتأمل] مثلما يوجد من هم يتقنون الروية وليس لديهم بديهة، فقلما هم متكافئون»[31].

أما الخصلة الداخلية الثانية للكاتب فهي [ملكة] «الاختراع». وهي لفظة استخدمها القلقشندي وطبقها على قول ابن الأثير في هذا الموضوع مع أن هذا الأخير لم يستخدم هذه اللفظة[32]. وقد بينت في الفصل الأول أن فن الإنشاء يعتمد على الاختراع

والابتكار والابتداع. وفي رأي ابن الأثير السبيل إلى الابتداع جزء من عملية روحانية. وهو يبدأ توصيفه للدروب الثلاثة التي عبرها يستطيع الكاتب أن يتعلم صنعة الكتابة بقوله: إن اللّه قد ألهمه هذه المسألة وأنه لم ير شخصاً آخر يتعامل بها على هذا النحو، ثم ينتقل ليعدد الدروب الثلاثة[33]، وكل واحد منها يقدم للكاتب حصة أكبر في هذا العالم الروحاني، كما يبدو، فيؤكد على الصلة الظاهرة بين ما هو إسلامي أصلاً وما هو أكثر دلالة على علوم إنسانية عربية.

الدرب الأول للكاتب -وهو ما يدعوه ابن الأثير المستوى الأدنى- هو دراسة ما كتبه القدماء، متعمقاً في دراسة استخدامهم للعبارات والأفكار، ومن ثمّ يتخذهم قدوة له. أما الدرب الثاني، وهو المستوى المتوسط، فيتمثل في المزج بين ما كتبه الأقدمون وما يراه الكاتب نفسه حسناً في كونه إضافة منمَّقة، وذلك إما لجهة الأفكار والمعاني أو لجهة تجميل الألفاظ، وأما الدرب الثالث -الذي نفترض أنه المستوى الأعلى مع أنه لا يوجد نص صريح بذلك- فيقضي بألا يدرس الكاتب أعمال الكتاب القدماء البتة، ولا أن يلم بها، بل أن يوجه اهتمامه كله لحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية وقصائد الشعراء العظام الذين برعوا في استخدام الألفاظ والمعاني. وعبر تدرّبه على استعمال مقتطفات منها، يخطئ أحياناً ويصيب أحياناً أخرى، يطور الكاتب طريقته الخاصة التي ينبغي أن تكون على مستوى رفيع من الابتكار وألا تكون مشابهة لطريقة الكتاب القدماء، فهذا هو سبيل «الاجتهاد» ومن يمارسه يكون «إماماً» في صنعة الكتابة، ومن وهبه اللّه لساناً جريئاً وذهناً متّقداً هو الوحيد القادر على ذلك. ويضيف ابن الأثير إلى ذلك قوله واصفاً كم من الجهد قد بذل ليصل إلى تلك المرحلة المتواضعة، لكنه يقول: «قيمة الأشياء العليا تكمن في قوة الاستحواذ عليها والعمل الشاق المبذول لتحقيقها». لكن هذا القول لا يعني أن الكاتب ملزم باستخراج المواد والاستشهاد بها في كتاباته الإنشائية وأنه يجب أن يدمج فيما يكتبه تلك المقتطفات وحدها -مع أننا نعرف جيداً من ابن الأثير نفسه أنه ادعى تضمين إشارة واحدة على الأقل للقرآن الكريم على نحو معين في كل رسالة واحدة كتبها؛ لذلك فإن ما يمكن أن نستخلصه من هذه الدراسة المكثفة وحفظ تلك المصادر عن ظهر قلب أنها جميعاً

ترشده وهي دليله في كتاباته، وأنه يستطيع الاعتماد عليها ويأخذ منها لتكون عنصراً مكملاً لغريزته الفطرية[35].

وبغية إتمام وظيفة هاتين الخصلتين الأساسيتين للكاتب وتطبيقهما فقد حصل شيء من الجدال حول المكان والزمان المثاليين اللذين عندهما ينبغي أن تحدث الكتابة أو الاستظهار، أما بالنسبة للزمن فقد قال بعضهم: إن أفضل وقت هو قبل الفجر حين يكون الذهن خالياً نسبياً من الهموم ومرتاحاً، وقال آخرون إن منتصف الليل هو الوقت المفضل، ليس فقط لأن الجسم يكون قد استراح والذهن بكامل عافيته، بل أيضاً لأن العالم الخارجي ولا سيّما عالم الحيوان يكون هادئاً فلا يعكر صفو عمل الكتابة، وأما عن المكان، فينبغي أن يكون خالياً وبعيداً عن الأصوات ليس فيه ما يثير الخوف أو يسبب الكوارث، ويجب أن يكون مكاناً واسعاً رحباً نظيفاً تزينه الزهور والنباتات والمياه بحيث تشكل بيئة عمل تدخل البهجة والسرور في النفس، وقد ذهب بعضهم بعيداً لتأكيد ضرورة خلو المكان من الصور والأشياء البصرية الجذابة التي قد تشتت الذهن والقلب[36].

يتضح من عدد من الإشارات إلى ابن الأثير في هذا الكتاب أنه هو المصدر الرئيس للمعلومات عن عمل الكاتب وصنعته، أما الكاتب الآخر عظيم الأهمية في هذا الصدد فهو ابن شيث مؤلف كتاب «معالم الكتابة». ومع أن عدد الإشارات لكتابه هذا التي ضمنها القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» هو عدد ضئيل إلا أنها برغم ذلك ذات أهمية بالغة[37]. لذلك يجدر بنا التوقف قليلاً لنتحدث عما قدمه ابن شيث من إسهامات قيمة ساعدتنا في فهم دور الكاتب في العصر الأيوبي، ومع أنه كان معاصراً لابن الأثير حيث عاشا في المدة الزمنية عينها إلا أن مقاربة كل منهما لهذا الموضوع تختلف عن الآخر، فهناك من قال إن كتاب ابن شيث هو الدراسة الأكثر أهمية من كل ما كتب في العصر الأيوبي عن عمل ودبلوماسية الكاتب، علماً أنه لم يكن ثمة قدر كبير من المنافسة على هذا الشرف الرفيع، ولا سيما أن الحكم الأيوبي لم يدم أكثر من 79 عاماً (1171هـ-1250- م). وابن شيث شخص لا يعرف عنه الكثير على ما يبدو، سوى أنه مصري من أتباع المذهب الشيعي عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر

الميلادي). ونعرف أيضاً أنه عمل كاتباً في الديوان، وعاش معظم حياته في الإسكندرية انتقل بعدها إلى القدس، وقد كان شاعراً بالإضافة إلى كونه من كتّاب النثر(38).

ولكن تذكر المصادر شيئاً مهماً جداً فتقول: إن القاضي الفاضل كان يعتمد عليه كثيراً في مسائل تتعلق بعلم كتابة الرسائل(39).

يبدو أن كتاب معالم الكتابة لابن شيث يعدّ عودة مؤقتة لتقليد قديم؛ ذلك أنه يركز على المقتضيات الأخلاقية في عمل الكاتب أكثر مما يركز على الشروط الفكرية والأدبية التي كانت الشغل الشاغل عند ابن الأثير والحلبي من بعده، فهو كتاب لا يعد نقداً أدبياً بأبسط القول، بالرغم من احتوائه على فصل مختصر إلى حد ما عن البلاغة، لكنه كان كتاباً يتضمن تعليمات عن العادات الحميدة وقواعد السلوك أكثر مما يتضمنه كتاب ابن الأثير أو كتاب الحلبي، وهو إضافة إلى ذلك يكوّن أرضية مشتركة مع أعمال أخرى كتبت ابتداءً من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وما بعده وعالجت مسائل لغوية مثل المترادفات والأمثال والاستخدام الخاطئ لبعض الألفاظ، وهو يتضمن أيضاً قسماً خاصاً للكلمات المهمة التي تحتوي حروفاً صامتة معينة يقول فيها المؤلف إن بعض الكتاب لم يحسنوا استخدامها.

ذكرت في الفصل الثالث آنفاً أن اجتناب الرشوة شرط من الشروط الأساسية المطلوبة في الكاتب كما جاء في معالم الكتابة، وأول شرطين يذكرهما ابن شيث ينصان على أن الكاتب يجب أن يكون تقياً ورعاً وأن يقدم النصح الصحيح لمن يخدمه، والقائمة التي تلي هذين الشرطين في كتابه والمتضمنة ما يزيد عن اثني عشر شرطاً تستند إلى سلسلة من أشياء سالبة، ويقصد بذلك ما يجب على الكاتب ألا يفعله في علاقته مع الحاكم، غير أن حرفية التمسك بالقانون التي يشعر بها القارئ في هذه القائمة تدل على أن العلاقة بين الكاتب والحاكم في الوقت الذي وضع فيه كتاب معالم الكتابة تستند إلى احترام شديد، أو ربما إلى خوف شديد، وبالنظر إلى تكرار عبارات التذكير التي يقولها ابن شيث بخصوص الحالات التي تجعل الحاكم يغضب من الكاتب قد يستنتج القارئ أن ذلك ناجم عن الخوف ولا سيما أنه كان ثمة اعتقاد شائع آنذاك أن الشيعة

obeikandi.com

كانوا يعملون على الإقلال من سلطة الخليفة ورفع مستويات سيطرتهم[40]، وهذا يعني أن طموحاتهم ربما تكون حافزاً للخليفة ليزيد من تدقيقه في أنشطتهم، ومن النصائح التي يقدمها ابن شيث أن على الكاتب أن يتفادى الاندفاع المتهور لتقديم إجابة للحاكم [عن رسالة سابقة]. ولا يجوز له أن يصغي لحديث الحاكم الذي يخدمه إذا كان يسر أمراً لشخص آخر، إلا إذا كان ذلك الحديث من صميم اهتماماته المباشرة وقد جرى الحديث عنه في هذه المحادثة، ولا يجوز له أن يقاطع سيده قبل أن يكمل إعطاء الأمر؛ ذلك أن هذه المقاطعة لا تدل على افتقار الكاتب لآداب السلوك وحسن العشرة فحسب بل هي أيضاً تعطي انطباعاً قد يكون سالباً عن فهم الكاتب لما طلب إليه قبل أن يكتمل توضيحه، وأيضاً لا يجوز للكاتب أن يصرف انتباهه لشيء ما حيثما يخاطب، بل أن يكون جيد الإصغاء حتى لو كانت له معرفة سابقة لما يجري الحديث عنه.

ثم يضيف ابن شيث شرطين فيهما شيء من التشويق بخصوص قلة التهذيب والذوق. أول هذين الشرطين يمت بصلة للعادات الشخصية ومراعاة النظافة الصحية. فمثلاً لا يجوز للكاتب أن يسوك أسنانه في حضرة الحاكم ولا يجوز له أن يتجشأ ولا أن يستنثر أو يبصق، ولكي يجتنب هذه الأفعال ينبغي ألا ينفعل في حضرته. فلا يجوز له أن يتثاءب ولا أن يختال في مشيته ولا أن يأكل طعاماً قد يسبب رداءة في رائحة الفم، وإن وجد ضرورة لتناول الطعام مع الحاكم –وهذا ما ينبغي له أن يتفاداه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً– فيجب أن يكون «ممارساً ماهراً وقوراً» في طريقة تناول الطعام، وفي هذا الموقف يبدو ابن شيث متأثراً بهلال الصابئ، ولا سيما عند تركيزه على الصفات الفيزيائية والملكات العقلية المطلوب توافرها في الكاتب، ولكن يوجد هنا شيء من التمييز يثير الاهتمام، فمثلاً يرى الصابئ أنه من الواجب بل من الضروري على كل شخص يكون في حضرة الخليفة أن تكون أسنانه نظيفة ورائحة فمه جيدة، في حين نجد ابن شيث يطبق ذلك على الكاتب فقط، ولعل غرضه في ذلك أن يبرز تلك العلاقة الخاصة بينه وبين الخليفة والحاكم، وما هو أكثر إثارة للاهتمام أن الصابئ يقدم الوصف نفسه لبعض الوصايا الأخرى المتعلقة بآداب حسن العشرة، مثل عدم جواز الاستنثار أو البصق، إلا أنه يخص بها الوزير فقط[42]، وهذا تمييز

سنعرض له بشرح واف في موضع آخر في هذا الفصل عند محاولة تعداد مسؤوليات الكاتب ومسؤوليات الوزير.

أما النقطة الثانية المتعلقة بقلة التهذيب والآداب عموماً فهي تمت بصلة إلى ضرورة اجتناب التفوه بعبارات أو ألفاظ معينة تعد غير مقبولة كما تدل على ذلك القصة الآتية:

«يقال إن كاتباً معيناً سخر من الكاتب ابن وهب في حضرة سيده، فقال: إنه قد أخرج ريحاً. فقال له (سيده): تباً لك، لقد فعلت في القسم الأعلى من بدنك [الفم] ما فعله هو بالقسم الأسفل [ويقصد عجزه]».

وهذا يعني أنه لا يوجد فرق بين الكلمة التي تعني «أخرج ريحاً» والكلمة التي اختارها الكاتب في توصيفها التي كان ممكناً استبدالها بكلمات أكثر تأنقاً، ويضيف ابن شيث بأسلوب متملق معتاد أن الكاتب موضوع البحث يستحق هذا اللوم عينه(43). والجدير ذكره أيضاً أن الأمور الهضمية عموماً تمنع الكاتب من دخول الحمام مع سيده أو دخول أماكن قد يشعر فيها بأي انزعاج بسبب بطنه الكبير [هكذا].

ويتناول ابن شيث بالبحث أيضاً مسائل تتعلق بالاستقامة والأمانة، وهنا يتعين على الكاتب أن يقوم بخيار دبلوماسي للسلوك، فمثلاً لا يجوز له أن يبوح بأسرار الحاكم حتى لو أعطي الإذن بذلك، حيث «يجب عليه أن يجعل السر ميتاً فيدفنه في أعماق نفسه» (انظر ابن الأثير آنفاً)، وإن اتفق الحاكم معه على شيء ما فيجب أن يسلك سلوكاً يظهر فيه أنه هو من وافق، ولا يجوز له أن يمازح الحاكم حتى لو أن الأخير يشجعه على ذلك(44).

وكما ذكرت سابقاً فإن بعض المبادئ والأساليب وآداب السلوك التي تطبق في مرحلة معينة من التاريخ قد لا تكون قابلة للتطبيق دوماً، وأحد الأمثلة لذلك مسألة ما إذا كان الكاتب هو الشخص الأول الذي يدخل إلى الحاكم مطلع كل يوم جديد، ذكر ابن خلف أن الكاتب في العصر الفاطمي هو الشخص الأقرب للحاكم، فهو أول من يدخل إليه وآخر من يغادره، ولكن ابن شيث يعارضه في ذلك ويقول: لا ينبغي أن يكون الكاتب

أول من يدخل إلى الحاكم؛ ذلك أن أحداثاً قد تقع في يوم ما والشخص الذي تحدث معه قد يعتقد أن أول شخص رآه في ذلك اليوم جلب له الفأل السيّئ. ففي مثل هذه الحال ينبغي على الكاتب أن يكون بعيداً عن سيده[45]. ولكن ليس واضحاً ما إذا كان هذا الشرط شرطاً حقيقياً تطور إبان العصر الأيوبي وكان مستوحى من الخرافات التي يؤمن بها الشيعة أم أنه كان مجرد اقتراح قدمه ابن شيث استناداً إلى معتقدات شخصية وخاصة، وأياً كان الحال فإنه يطرح سؤالاً عن طبيعة العلاقة الشخصية بين الكاتب والحاكم ولا سيما أن ذلك من أدق التفاصيل عن المودّة بينهما التي جاءتنا من المصادر، ثم يضيف ابن شيث إلى ما تقدم قوله: إنه لا يجوز للكاتب أن يدخل على سيده إذا كان في خلوة إلا إذا طلب إليه ذلك، حتى لو كانت تلك عادته في أثناء الاجتماعات، ولا يجوز له البتة أن يقطع عليه صلاته ظناً منه أنه يفعل خيراً، «فذلك كان سبباً في سقوط الكثيرين». هذه العبارة الأخيرة المقتبسة تؤيد فرضيتي السابقة بأن الكاتب سرعان ما يخسر محبة الحاكم.

وبعد أن يقدم توصيفاً أساسياً للقواعد والعادات المتبعة في اللباس يذكر ابن شيث ملاحظات خاصة حول محبرة المداد وعلاقتها بالكاتب، فمثلاً يقول: إن الكاتب يجب أن يكون مسلحاً بمحبرته دوماً سواء طلب إليه أن يكتب أم لا، مثلما يحمل الجندي سيفه ولا يجوز أن يراه أحد دون سيف، ويجب ألا تكون مملوءة كثيراً حتى حافتها بالمداد خشية أن يندلق منها الحبر، ولعله يستعيد في ذهنه بعض الخرافات فيقول إن قطعاً من القطن أو الحرير التي توضع في حامل المحبرة تتبعثر في الأرجاء في معظم الأحيان وهذا ما قد يراه بعض الحاضرين فألاً سيئاً، ولا يجب أن تكون المحبرة قبيحة المنظر بسبب كبر حجمها، ولا استثنائية لصغر حجمها، فالمحبرة الكبيرة ترمز لعلو منزلة الكاتب و[من ثَمّ] حمقه، والمحبرة الصغيرة تدل على مدى عمق غروره وأوهامه»[46]. لهذا ينبغي أن تكون المحبرة متوسطة الحجم ولا تملأ جوانبها بالأقلام والأدوات الأخرى، غير أن هذا الاهتمام الشديد بالتفاصيل المادية للمحبرة يجب ألا يؤخذ باستخفاف وعدم اكتراث، ولا سيما أن هذه الأداة كانت في نظر الكثيرين أداة مهمة ليس فقط بسبب ارتباطها بالقلم بل أيضاً لأن لها أهمية

خاصة بذاتها عند بعض الكتاب على الأقل، ونحن نجد لذلك مثالاً عندما نظم أحد الشعراء قصيدة يمدح فيها المحبرة ويصفها بأنها «أداة المعرفة»[47]. ومن جهة أخرى قد يبدي الكاتب تواضعه أمام الحاكم بشتى الطرق، فمثلاً لا يجوز للكاتب أن يكتب من محبرة سيده إلا إذا أذن له في ذلك ولسبب خاص. وإن فعل ذلك دون إذن منه فقد يستفز سخرية وغضب الآخرين وقد يسبب العار لسيده من جرّاء التعليقات الشفهية، ويقول ابن شيث أيضاً: إن ذلك سلوك من كاتب يعترض عليه كاتب زميل له، فما مدى إساءته للحاكم أو الأمير الذي يكون الكاتب «ملزماً بالتواضع والتذلل أمامه»[48]. وبالإضافة للوصايا المذكورة آنفاً يتعين على الكاتب أن يجلس دوماً وألا يقف، في حضرة الحاكم.

فيما عدا ما ذكر آنفاً فهناك مجال معين يجب أن يكون الكاتب قدوة فيه، ألا وهو استخدام اللغة، فبالرغم من أن واجبه يقضي بأن يحرض دوماً على استخدام الكلمة أو التعبير الصحيح إلا أنه ليس من الخطأ في شيء أن يسكت إن لم يجدها.

فالسكوت في حد ذاته، كما يقول ابن شيث: ينقل الأفكار والمعاني [المستترة] ومن يتسرع بالكلام ليس [بالضرورة] شخصاً أنعم الله عليه بالثراء وفيض المعاني، فالكاتب يجب أن يكون حكيماً في اختيار الألفاظ وأن يفكر ملياً فيها قبل أن يتلفَّظ بها. ولا يجوز له بحال من الأحوال أن يعطي الانطباع لمن حوله في أثناء اللقاءات -والذين أغلبهم ممن لا يعرفون القراءة والكتابة، كما سمعنا- بأنه غير متمكن من اللغة. وإذا شك أحد من الحاضرين في أنه يلحن فسوف يضحك ويُضحك من معه أو ربما سيسجدون له معتقدين أنه سحرهم بروح شريرة، يجب أن يتظاهر بأنه مطلوب منه أن يكتب شيئاً قد هيمن على أفكاره، شيئاً سوف يتدفق بغزارة حين يكون مع من يخدمه، «فيكون ذهنه على أهبة الاستعداد للسباق، مسرجاً ملجماً، وأفكاره مهيأة وعلى وشك الانطلاق بالمعاني المنتظرة والجارية»[49]. غير أن الكاتب المسؤول عن إنتاج وثائق الدولة الرسمية، كما يقول ابن الصيرفي -أي الكاتب الذي يرأسه رئيس ديوان الإنشاء- يجب أن يكون قادراً على إنشاء رسالة طويلة ومفصّلة من كلمة واحدة وفكرة واحدة تعطى له[50] وكيفما يشاء.

obeikandi.com

وهناك أيضاً قواعد تتصل بقراءة الوثائق، وإجازة الكاتب أن يضيف شيئاً للرسائل بخط يده. أما بخصوص قراءة الرسائل، فينبغي له أن يتحلى بالبراعة في إجراء عرض سريع جداً لمقدمة الرسالة والفقرة الختامية لها ويقرأ الرسالة سريعاً ليستخلص جوهرها وماهيتها، «بحيث يدرك جيداً محتواها من لحظة فتحها»[51]. وأما بخصوص إضافة شيء إلى الوثائق التي سبق أن وافق عليها الحاكم، فلا يجوز له بحال من الأحوال أن يفعل ذلك دون إذن منه، حتى لو كان واضحاً أن الموقف يتطلب ذلك، فهذا جزء لا يتجزأ من الثقة القائمة بين الحاكم وكاتبه، وإن أضاف الكاتب شيئاً فيتعين عليه أن يدل على ذلك بخط يده وذلك كيلا يضيف شخص آخر شيئاً للرسالة وينسبه إليه.

ما تقدم ذكره يعطي القارئ صورة معقولة لجوانب عديدة من واجبات الكاتب في العصر الأيوبي، وكان التركيز فيه على نحو رئيس على ما كتبه ابن شيث وذلك لسببين رئيسين. أولهما: يبدو أن وصفه لدور كاتب الإنشاء في العصر الأيوبي يعكس إلى حد ما أغراض الكتاب السابقين ما بين القرنين الثاني والثالث الهجريين (الثامن والتاسع م) الذين اقتصرت اهتماماتهم على شيئين أساسيين هما الجوانب السلوكية في حياة الكاتب وخبرته في فقه اللغة وثانياً: إذا استبعدنا كتاب المثل السائر لابن الأثير من المعادلة بسبب تأكيده الشديد على نظرية الرسائلية نجد أن كتاب ابن شيث هو في أبعد تقدير المصدر الأهم في فهمنا لدور الكاتب في المجتمع الإسلامي في أثناء العصر الأيوبي. ويبدو أن كتابه «معالم الكتابة» لم ينل ما يستحقه من اهتمام من جانب القلقشندي وذلك إما لأسباب سياسية، أو لأنه لم يتمكن من الحصول عليه، وهذا غير محتمل. وليس ثمة شك أن الشيعة عموماً قد أوضحوا نياتهم ومقاصدهم جيداً لجهة الإقلال من سلطة الخليفة وليقبضوا هم على السلطة، وهذا الوضع جعل الكتّاب من أصحاب هذا المذهب في صراع مباشر مع المسلمين السنة الذين كانوا يعملون لدى الخليفة، وليس ثمة شك أيضاً أن القلقشندي كان من هذه الفئة الأخيرة، وبرغم ذلك يشير تركيز ابن شيث على التواضع وعلى التزام الكاتب بإرضاء الخليفة أنه كان مؤيداً للخلافة كل التأييد وليس معادياً لها، إلا إذا كانت النصائح التي يقدمها حول سلوك الكاتب مجرد تملق مكشوف للخليفة.

إن كتاب «معالم الكتابة» أكبر من أن يكون مجرد تقليد لأعمال سابقة حول هذا الموضوع، ولا سيّما أنه يتضمن كثيراً من المعلومات وأصول الممارسة الخاصة بعصره. ويمكن ملاحظة أحد مجالات المقارنة في حقيقة أن رئيس ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي لم يكن مسموحاً له أن يصحح ما يقوله الحاكم في أمر معين أو في مسألة لغوية أمام الآخرين -فذلك يجب أن ينتظر حتى يكونا منفردين- لكنه يستطيع دبلوماسياً أن يوجهه نحو ما هو صحيح[52]. ولكن قد يتكون عند القارئ انطباع قوي لدى قراءة عمل ابن شيث بأن حريات كهذه لم تكن مسموحة في عصره. ونحن نعرف أن الكاتب في العصر الأيوبي لا يسمح له أن يعطي الانطباع للناس بأنه قد أكره الحاكم على القيام بعمل جيد، على سبيل المثال[53]. كما أن بعض الخرافات المذكورة آنفاً لم يكن ذكرها مألوفاً في المؤلفات الخاصة بعمل الكاتب. وسوف أعود للحديث ثانية عن أعمال ابن شيث المهمة في موضع آخر من هذه الدراسة.

ومن الجدير بالدراسة أيضاً إلى جانب كتاب «معالم الكتابة» ما قدمه ابن الصيرفي من بحوث ضمنها في كتابه الشهير «القانون في ديوان الرسائل» الذي سبق دراسة ابن شيث بنحو قرن من الزمان. إذا اتفقنا مع ما يقوله بيوركمان Bjorkmann أن كتاب ابن الصيرفي هو توصيف للديوان في أواخر العصر الفاطمي وليس تطويراً له فإننا نجد القليل جداً من التطورات المهمة في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي. فمثلاً، الشرط الأول الذي لا يسبقه شرط لموقع رئيس ديوان الإنشاء هو أن يكون رجلاً «متديناً، تقياً، أهلاً للثقة»[54]. وهو مسؤول ومن جملة مسؤولياته ما يأتي:

> «أرواح الناس وأموالهم... إن أضاف كلمة واحدة، أو حذف حرفاً بسيطاً، أو كتم شيئاً يعرفه أو فسر لفظاً بمعنى خطأ أو شوه معناه فإنه يسبب الأذى لمن لا يستحق الأذى ويفيد من لا يستحق الفائدة»[55].

وبأسلوب ليس مغايراً لأعمال من هذا النوع يبين كيف أن أخطاءً كهذه تؤدي إلى ترتيب فوضوي للأشياء، حيث يقوم الملك «بشكر من يستحق اللوم ويلوم من يستحق الشكر». وكما قال ابن شيث بعد مئة عام يجب على رئيس ديوان الإنشاء أن يجتنب أخذ

الرشوة لأن الرُّشَا وغيرها من الجنح الخطيرة هي «لعنة على الملك». كما يتحدث ابن الصيرفي بعبارات واضحة وصريحة عن أهمية تضمين نص الرسالة ليس فقط كلمة الله بل أيضاً «روح» هذه الكلمة، أو لنقل مجمل الخطاب الإسلامي. فهو يقول:

«كاتب الرسائل هو الشخص الذي يتعين عليه أن يستشهد بكلمة الله تعالى أكثر من أي شيء آخر في أثناء حديثه وفي فقرات كتاباته وعليه أن يستشهد أيضاً بسلطته المطلقة [أي أوامره ونواهيه]، وعقوباته وتحذيره، فتلك هي زخرف الرسائل وزينة الإنشاء المكتوب ذلك أنها تكوّن حصناً لقوة الكلام وتثبيتاً لصحته في عقول [الناس]»[56].

يقدم ابن الصيرفي أيضاً بعض الملاحظات حول هذا الكاتب الذي يصفه بأنه الناطق باسم الحاكم، وفيما يمكن أن نعده مزيداً من التأكيد على طبيعة فن الدعاية عند الفاطميين يصف لنا ابن الصيرفي كيف يقوم الكاتب المسؤول عن الإنشاء، وكلما أعرب الملك عن رأي صائب أو فعل خيراً أو قام بعمل إداري رائع، بالإعلان عنه أمام الناس والإشادة به وتمجيده وتأكيده [57]، وفي رسائل يكتبها عن الملك -وهذه هي مسؤوليته الرئيسة- كان مبدعاً في إنشائه وكلما أحسن في الدخول إلى النفس يزداد تعظيم الملك له، ويزداد موقعه سمواً بين أفراد المسلمين[58]. والحق يقال: إنه لم يكن مصادفة أن نجد إبان الحكم الفاطمي أحد موضوعات التهنئة رسائل تهنئة وتبريك لمناسبة التعيين مع انتشار المذهب الشيعي[59].

إن كاتب الإنشاء الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد مرتبة رئيس ديوان الإنشاء هو الكاتب المسؤول عن الرسائل الموجهة بالنيابة عن الملك إلى الملوك الآخرين، وأولئك الذين يتكلمون بلغات مختلفة ويعتنقون ديانات أخرى. ومن المهارات الإضافية التي يجب أن يتحلى بها أن يكون قادراً على تبديل أسلوبه في المخاطبة؛ لذلك حين يخاطب ملوكاً لا يتكلمون العربية يجب عليه أن يجتنب استعمال السجع - مثلاً - وأن يمتنع أيضاً عن تضمين رسائله الأمثال والصور البلاغية مثل «الاستعارة» و«التشبيه» ما لم تكن هذه الصور معروفة في تلك اللغة [60]. وابن خلف أيضاً يركّز بعبارات جازمة على تفوق

وعلو منزلة الكاتب حين يقول: إن الطبقات الأدنى [أو جماهير العامة] لا تحترم موقع النعوت والأفعال كما هي في قواعد اللغة، من أجل ذلك نرى ألفاظ هؤلاء غير متطابقة مع معانيهم. لكنه يقول: ولا يمكن لوم الكتاب في ذلك لأنهم يكتبون بالنيابة عن الحكام الذين لا يرضون حين يكون ما هو مكتوب باسمهم مخالفاً للترتيب القويم(61).

والآن حان الوقت لندرس موقع الكاتب بموازاة موقعين آخرين لهما أهميتهما، وهما الحاجب والوزير. ليس ثمة شك في أنه يوجد توتر دائم ومستمر بين الكتاب والوزراء ليس أقله أن الكتّاب عادة يختارون من بين «رجال القلم» أي البيروقراطيين بينما ينتقى الوزراء من بين «رجال السيف»، أي العسكر. فيما يلي سأقدم موازنة موجزة لدور كل منهما، وسوف أتطرق لدور الحاجب في هذه البيئة، ويبدو أن بعض الواجبات الملقاة عليهم مشتركة بين هذه المناصب الثلاثة، وبعضها الآخر محدد لكل منصب على حدة.

دور الحاجب موصوف على نحو واضح في المصادر. فهو لا ينشئ الرسائل أو المراسلات العامة بالنيابة عن الحاكم، ومع ذلك فمنصبه له أهمية بالغة؛ فالحاجب هو الوسيط بين الملك وكل من يرغب في زيارته وهو الذي يرتب الناس أمام الملك طبقاً لذلك(62). وهو رجل راجح العقل والمنطق وعلى خلق، مظهره مهيب، ذكي وحكيم لا هو عنيد متجهم الوجه ولا هو بالمطواع لين العريكة، وينبغي أن يكون على علم جيد بمنزلة من يدخل إلى الملك ويرتب مواضعهم بحسب منزلة كل منهم، ويجب أن يعرف سلوك الملك وتعليماته وأعماله الخاصة والعامة، وينبغي أن يعرف أيضاً أوقات لقاءاته والأوقات التي يكون فيها في خلوة. وينبغي أن يهتم بأفراد حاشية الملك وأن يكرم وفادتهم ولكن لا يسمح لأحد بالدخول على الملك دون إذن منه(63). وكما قال سوردل Sourdel: إن الحاجب هو الشخص «المسؤول عن حراسة باب الدخول إلى الحاكم»(64). ويتعين عليه أيضاً الامتناع عن إظهار اللطف والكياسة والمودة نحو من لا يحبهم الحاكم، ويتضح أيضاً من نماذج الرسائل المكتوبة في شأنه مثل الرسائل «الإخوانية» المتضمنة تهنئة للأفراد على تعيينهم في المناصب أن موقع الحاجب يحظى باحترام كبير(65).

في عهد الأمويين في صدر الإسلام كان منصب الحاجب يعادل منصب الكاتب في حاشية الخليفة، لكن ما يدعو للاهتمام أنه «ليس له أن يدعي أنه مساو في علو المنزلة

للأرستقراطيين العرب». أما في عهد العباسيين فيبدو أن منصبه في بلاط الخليفة كان أسمى من ذلك، حيث كان الثاني من حيث الأهمية بعد الوزير[66]. هكذا كانت وضعية الحاجب في المجتمع الإسلامي في المشرق، أما وضعيته في إسبانيا إبان العهد الإسلامي (الأندلس) فكانت تفوق وضعية الوزير، ففي هذا المجتمع كان الحاجب مساعداً للأمير في الإدارة والحكم، ويقوم بأعمال رئيس الوزراء[67]، وفيما أحاول تبيان العلاقة المعقدة بين الكاتب والحاجب والوزير بإيجاز فيما يلي فإنه من المهم أن نذكر أنه كان ثمة تنافس شديد ومتواصل بين الوزير والحاجب في أثناء القرنين الأولين من حكم العباسيين، ومن ثمّ غدا الحجاب الذين كانوا في الأصل خدماً في القصر المنافسين الأشداء للكتاب[68]. وبالتأكيد لم تغفل المصادر والمؤلفات ذلك التنافس الحاد بين الكاتب والحاجب. وخير مثال دال على أن هذا التنافس قد بات ظاهراً للعلن ورد في كتاب من تأليف ابن ماماتي، وهو مسيحي اعتنق الإسلام في أعقاب فتح صلاح الدين لمصر، وقد كتب مقطوعة هجائية كانت بكل تأكيد بخصوص حاجب صلاح الدين الأثير واسمه قراقوش بعد أن فر من مصر إلى حلب في سورية[69].

وماذا عن العلاقة بين الكاتب والوزير؟ إن تاريخ أعمال الوزير وما قدمه للمجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث تاريخ لا يخلو من التعقيد لكنه في الوقت عينه تاريخ رائع، وهذا ما وصفه الباحث زمان Zaman بقوله: «يبدو أن إحداث منصب الوزير يرجع في أصوله إلى منصب الكاتب وإلى منصب مستشار الملك»[70]. وقد توضح هذه الحقيقة بعض أسباب بدايات التوتر في العلاقة بين الحاجب والوزير، وليس بين الحاجب والكاتب، وهنالك بعض الدلائل من العصر العباسي تشير إلى أن المؤهلات المطلوب توافرها في الوزير كانت معادلة للمؤهلات المطلوبة لمنصب الخليفة ذاته[71]، لكن بحسب ما يقول ابن الصيرفي لم يستقر نظام الوزارة في مصر إلى أن جاء الفاطميون للحكم، وذلك خلافاً لما كان عليه الحال في حلب حيث الدلائل تشير إلى أن نظام الوزارة قد عرف درجة من الاستقرار والاستمرارية[72]. ففي العصر الأيوبي كان الحاكم يعين الوزير ليكون رئيساً للإدارة والدواوين. لكنَّ السلاطين الأيوبيين في مصر غالباً ما كانوا يقومون بأعمالهم في الحكم والإدارة دون وزير، وخير شاهد على ذلك صلاح الدين الذي لم يعين وزيراً له دور رسمي، والقاضي الفاضل الذي يعد أعظم كاتب نثر ورسائل،

وعلى الرغم من قربه من صلاح الدين لم يكن وزيراً بصفة رسمية، مع أن ابن الأثير الذي خدم الأفضل قد تبوأ المنصب ثلاث سنين من 589 إلى 592 هـ (1193 - 1196 م).

وقد نجد وجه شبه واحداً ومهمّاً جداً بين الكاتب والوزير؛ وذلك بالطريقة التي بها يستعين كل منهما للوصول إلى منصبه، فالطريقة عينها التي يتبعها الكتاب ليحصلوا على مواقعهم أو في أقله الطريقة التي يساعدهم بها أصدقاؤهم ووسطاؤهم للوصول إلى مناصبهم كان الوزراء يتبعونها في العهد الأيوبي فيتعلمون مهاراتهم في أغلب الأحيان عبر عملهم ولا سيّما أنهم في بداية أعمالهم يكونون كتاباً في الديوان، يقول إده Eddé: «لم يكن ثمة تدريب نظري محدد لمنصب الوزير، وعراقة الأسرة وكريم النسب هما الأهم لمعظم المناصب الرسمية»[74]. لكن هذه ادعاءات لها أهميتها حيث إنها تؤكد ما كنت أحاول تبيانه بخصوص الكاتب في الفصل الرابع.

غير أن التمييز بين بعض واجبات كل من الكاتب والوزير ليس واضحاً دوماً، ولا سيما في العصر المتأخر، ويبدو أن بعض هذا الغموض يتركز حول السلطة السياسية للوزير بخصوص دوره في رعاية الحياة الدينية والثقافية والفكرية إبان العصر العباسي، فنجد ابن أبي الربيع يقدم لنا وصفاً واضحاً «للكاتب الخاص عند الحاكم» (أو كما كان يقال حرفياً «الكاتب الحاضر») وهذه صفة من أربع صفات للكتاب في ذلك العصر[75]، عندما يتحدث عن شروط الذكاء وبعد النظر والمعرفة الجيدة بقواعد اللغة والبلاغة والعلم الجيد بمنزلة الملوك وكتاب الرسائل، وبحيث تكون لديهم المقدرة على إعطاء كلٍ حقه، ويوجد أيضاً مصدران آخران معروفان جيداً –وينسبان إلى الماوردي– يصفان الوزير وبعض واجباته ويذكران أنها مشابهة لواجبات الكاتب، فمثلاً يقول المؤلف: إن الوزير يجب أن يتمتع بالحكمة والصبر وأن يكون متفقهاً في الدين ومتواضعاً ومستقيماً، ويقدم الماوردي نصيحة للوزير بحكم كونه الشخص صاحب الدور المباشر أكثر من غيره في إدارة شؤون الملك، فيقول: إنه يجب أن يتمتع بالأمانة، وأن يكون عادلاً منصفاً ومحباً للخير وصبوراً، منطقياً سليم التفكير وألا يكون سريع الغضب. ويتعين عليه أن يقدم آراءه ومشورته للملك، وأن يكون «عينه» فيوضح له كل شيء، وأن يكون «لسان الملك حين يتكلم وعينه حين ينظر»[76]. وبعدما يقدم هذه الأوصاف للوزير

يضيف الماوردي ملحوظاته قائلاً: وهذا كله بالإضافة إلى أوصاف مشابهة لدور الكاتب مشيراً إلى وجود تداخل بين تلك الواجبات المهمة؛ لذلك إذا وضعنا المسائل الأدبية جانباً فإن ما يقدمه كل من الماوردي وابن أبي الربيع يشير إلى عدم وجود تمييز واضح يخلو من اللَّبْس بين بعض واجبات الوزير والكاتب.

ومع ذلك وعلى الرغم من وجود بعض أوجه الشبه في الواجبات الخاصة بهذين الدورين إلا أن ثمة دلائل تشير إلى أن «رجال القلم» كانوا يحاولون بقوة أن يتميزوا عن الجند بوسائل شتى. يروي الصابئ قصة كاتب كان يتعمد إظهار افتقاره للقوة والشجاعة في حضرة الخليفة ويسعى للاختباء من وحش طليق مع أنه كان يقول: إنه لم ير أي خطر في ذلك الموقف، وفي هذا يقول الصابئ: «ليس ثمة شيء أسوأ على رجال القلم من الظهور بمظهر الشجعان أو انتحال صفات العسكر»[77].

ربما يكون تركيز الماوردي على دور الوزير كما شاهدنا آنفاً محاولة لانتزاع شيء من المصداقية من دور الكاتب وإضفاء تلك الصفات الممتازة والواجبات النبيلة على الوزير، ولا سيّما أن مرتبة رئيس الديوان في العصر العباسي قد ارتفعت عالياً فأعطي رئيس الديوان لقب الوزير[78]. وقد انعكست هذه المنزلة الرفيعة في تعليق على جانب كبير من الأهمية ورد في كتاب الغزالي (ت 504هـ/ 1111م) بعنوان: «نصيحة للملوك». فهو يقول: إن على الملك أن يراعي ثلاثة مبادئ في تعامله مع الوزير، وهي: «ألا يتعجل في معاقبته حين ينزعج منه، وألا يشتهي ثروته إن اغتنى، وألا يرفض له طلباً [ضرورياً] إذا طلب»[79]، والملحوظة المهمة هنا هي أن الغزالي -وهو فيلسوف وعالم وفقيه- يرفع من شأن الوزير ويسمو به فوق منصب الكاتب الذي كان على صدام - في أغلب الأحيان - مع الفقهاء وعلماء الدين بسبب اعتمادهم على الكلمة المحكية وتفضيلهم لها على الكلمة المكتوبة[80].

ولكن برغم كل ما قيل، فإن أهمية الكتَّاب في بقاء واستمرار الحكم الفاطمي لا يطالها شك، وكذلك التسامح الذي أظهروه نحو الكتَّاب الأقباط أو السنّة كما توارثوه عن العباسيين، وفي هذا يقول العماد: «كان الفاطميون يعلمون أنهم لن يكونوا قادرين على بناء حكمهم لولا خبرة ومعرفة طبقة الكتَّاب المصريين، ولعل ذلك بسبب تسامحهم، أو على نحو أكثر دقة بسبب نفعيتهم»[81]. ويجدر بالذكر أيضاً أن ذكاء

obeikandl.com

الأقباط وفطنتهم الإدارية على وجه الخصوص جعلتهم يتبوّؤون أعلى المناصب في النظام البيروقراطي الفاطمي، حتى أعلى منصب في الحكم وهو منصب الوزارة»[82]. والجدير بالذكر أيضاً أن تبوُّؤ الأقباط للمناصب العليا استمر حتى وقت متأخر من العصر الأيوبي كما حصل مع كاتب اسمه النشو، وقد تولى منصب «الناظر الخاص» للسلطان الملك قلاوون في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر م)[83]. يقول ليتل Little إن دور الناظر الخاص يتجسد في «إدارة شؤون العامة من الناس وتعيين الموظفين»[84]. فكان «النشو» واحداً من أربعة رجال أقباط اعتنقوا الإسلام من أصل خمسة أشخاص يمسكون هذا المنصب. والظاهر أن من يصلون لهذا المنصب من الأقباط كانوا يشقون طريقهم نحو المناصب عبر السلسلة البيروقراطية بتملق الآخرين[85].

يبدو أن التمييز بين دور الوزير ودور الكاتب كان واضحاً بصورة معقولة في عصر الفاطميين على الأقل، فالمنصب الأعلى هو منصب الوزير ويليه منصب الكاتب ثم الحاجب برغم أن رئيس ديوان الإنشاء هو الشخص الوحيد الذي يطَّلع على أسرار المراسلات الواردة إلى الخليفة وهو المسؤول أيضاً عن الرد عليها، وكان في خدمة كاتب الإنشاء في هذا العصر كاتب السر الذي لم يكن يساعد الخليفة إلا في بعض المسائل مثل تلاوة القرآن فحسب، بل كان أيضاً يجلس مع الوزير حين يتولى هذا الأخير النظر في القضايا القانونية[86]. لكن الماوردي لا يخفي حسمه للمسألة بخصوص المنزلة الرفيعة للوزير في هذا العصر، كما يظهر ذلك من قوله: «لأنه يكافئ الملك في ملكيته وسلطته. ويختار ليكون أقرب إليه من غيره، وهو يعين في أعلى منصب إداري»[87].

كما يجدر بنا أن نلقي نظرة وجيزة على منزلة القضاة وأوضاعهم المهنية مقابل منزلة الكتاب وأوضاعهم، حيث كان الكتاب في العصر العباسي يتمتعون بمنزلة أسمى كثيراً من منزلة القضاة، وهذا ما أقره الكثيرون بشتى الوسائل، ولا سيما في ترتيب الدخول إلى بلاط الخليفة، ففي تلك الأيام كان الحاجب يقود الموكب يتبعه الوزراء ثم رؤساء الدواوين فالكتاب. وبعدئذ يدعو الحاجب القادة العسكريين الذين يسبقهم في الترتيب مساعدو الحاجب، ثم يأتي القضاة[88]. لكن هذه الحال تبدلت ابتداءً من القرن

الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على الأقل كما ذكر ذلك سلهايم وسورديل Sellheim and Sourdel:

> وبدءاً من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فصاعداً كان الكتاب، الذين وجدوا أمامهم عناصر أجنبية ذات أصول تركية، ينتمون إلى الدائرة الاجتماعية عينها التي ينتمي إليها علماء الدين لكن باهتمامات وتخصصات مختلفة قليلاً. ففي هذا العصر صار القضاة يقومون بوظائف كانت سابقاً حكراً على الكتاب وصاروا يتدخلون في الشؤون الحكومية وكتابة وثائق الديوان. بيد أن هذا التوجه نحو توحيد هاتين الدائرتين وضمهما في دائرة واحدة ازداد قوة في عهد المماليك، وهكذا كوّن الكتاب وعلماء الدين ما صار يعرف آنذاك بـ «أصحاب العمائم»[89].

لقد كانت تلك الأحداث تطورات على جانب كبير من الأهمية، فقد أمسى الكتاب مكرهين على التخلي عن بعض واجباتهم لمصلحة «الناظر الخاص». ومع أن مرتبة كاتب السر قد باتت مرتبة ثابتة بقوة –حيث تحددت واجباته وصلاحياته وازدادت أهميته ومثالها التوقيع في وزارة العدل على وثائق يوقعها الوزير نفسه– إلا أنه يبدو أن بعض مسؤوليات الكاتب قد انتقلت إلى الناظر الخاص. ولتوضيح ذلك نقتطف ما يأتي: «يدخل الناظر الخاص إلى حضرة السلطان كل صباح ويتحدث معه حول كل ما يريد السلطان إنفاقه على تابعيه المقربين وجواريه وعلى من يختار»[90].

يصف الظاهري في كتابه الذي وضعه في أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر م) دور الوزير ودور الكاتب عبر فئتين متميزتين، لكن مسؤوليات كل منهما على وجه الدقة ظلت غائمة بعض الشيء فلم يوضحها. ولكن يبدو أن دور الوزير قد اكتسب مزيداً من الأهمية، ولا سيما أن الكتب المقدسة قد أكدت منزلته ومسؤوليته – كما يقول الظاهري[91] – مثلما تأكدت منزلة ومسؤولية الكاتب عبر الإشارات الواضحة إلى القلم في القرآن الكريم، كما ذكرنا ذلك في الفصل الثالث آنفاً. غير أن أهمية مرتبة الوزير قد تعززت الآن عبر الاستشهاد بالاشتقاق اللغوي لكلمة «وزير» التي قد

obeikandi.com

يدل معناها على ثلاثة أشياء اعتماداً على نوع الاشتقاق الذي يريده المرء، مثل: الجذر «وزر» أو «عبء» (الثقل بالعربية)، ذلك أن الوزير يحمل أعباء السلطان، أو الجذر «وزر» أي «لجأ ولاذ»؛ ذلك أن السلطان يلجأ ويلوذ إلى رأي الوزير وعلمه وإدارته، أو قد يكون الجذر «أزر» أي العمود الفقري بسبب ما يقدمه من قوة «يشد الأزر» بالطريقة نفسها التي يشد الظهر قوة الجسد[92]. وكل من يعين لهذا المنصب يجب أن يضطلع بمسؤولية شؤون الدولة والمملكة وعليه أن يتخلص من كل ما يسوؤها وأن يحسن أحوالها ويحمي رجالها وينمي ثرواتها، على سبيل المثال. وعليه أيضاً أن ينظر بعين ثاقبة - سراً وعلانية - إلى ما يفعله ويقوله الأشخاص القادرون الجديرون بالثقة وأن يصحح الأشخاص المهملين وغير المهتمين ويكافئ من يخلص ويجيد في عمله[93]. ويتابع الظاهري وصفه مستشهداً بكلمات يزعم أنها للخليفة المأمون، حيث يقول: «فهو [الوزير] له سلطة الأمراء واستقامة الحكماء وتواضع العلماء وسعة علم الفقهاء... وهو يستعبد قلوب الناس بطلاوة لسانه وحسن بلاغته». لذلك فمن الواضح أن الوزير قد نيطت به واجبات مهمة وأنه المسؤول عن إدارة الكثير من شؤون الدولة بما في ذلك الشؤون المالية كما يساعد في التعليم العام وتنمية قدرات الناس. لكن دوره في مجال الفصاحة والبلاغة ليس على هذا القدر من الوضوح، حيث إنني أفترض أنه لم يسهم البتة في كتابة الرسائل -وهذا واجب يبدو حكراً حصرياً للكاتب- إلا إذا كان الوزير نفسه هو الكاتب، كما كان حال علي بن زيد الكاتب الذي قال العبارة التي ابتدأنا هذا الفصل بها أو ابن الأثير الذي كان وزيراً مع أن وزارته هذه كانت مدة محدودة، كما كان رئيساً للديوان، وهناك أيضاً أمثلة كثيرة مهمة في التاريخ الإسلامي لوزراء لم يكونوا كتاباً من الناحية الرسمية لكن نتاجهم الأدبي كان مدهشاً وذا شهرة واسعة، مثل الصاحب بن عباد (ت 385هـ/ 995م) وابن العميد (ت 360هـ/ 970م).

وبرغم ذلك كان الظاهري إيجابياً بخصوص واجبات الكاتب بقدر ما كان حديثه عن الوزير، فهو يقول: لا يوجد بلد أو دولة تستطيع الاستغناء عن خدماته، ثم يضيف قائلاً:

«كان [دوره] واحداً من ممتلكات الملك الثمينة ومن أساسيات الدولة... [و] يعد واحداً من ذوي السلطات الأكثر قوة... ذلك أنه الشخص المطلع على الأسرار، والشخص الذي عنده تجتمع الأشياء الخفية للخبرة والتجربة..»[94].

وبعد أن يعدد الصفات الرئيسة الواجب توافرها في الكاتب التي تشبه إلى حد كبير تلك التي وصفها ابن الأثير يقدم الظاهري ملاحظته المهمة الآتية، حيث يقول:

«رأيت شخصاً لديه خبرة في ديوان الإنشاء وعمله يقول إن شرطاً في الكاتب الخاص[95] ألّا يعرف اللغة التركية لكيلا يطلع على بعض نيات الملك حين يتحدث بالتركية، لكن هذا الكلام يتناقض مع تسميتنا له بأنه «الكاتب الخاص» وكل من لا يستطيع أن يكتم سراً حين يعلم به باللغة التركية فكيف به يكتم سراً باللغة العربية حين يكون وأد الفتنة وإراقة الدماء [في خطر]، أو ما شابه ذلك؟»[96].

غير أننا نجد في صبح الأعشى للقلقشندي تضارباً ظاهراً في الحكم على مستوى الأهمية التي أحيط بها كل من هذين المنصبين. يبدو القلقشندي، من جهة، يمثل المدرسة التي تعطي المزيد من الأهمية لدور رئيس الديوان، حيث يدعي أن منصب رئيس ديوان الإنشاء هو أعلى مرتبة ممكنة تتبع مرتبة الحاكم، فهو يعرف أشياء لا يعرفها حتى الوزراء الأكثر خصوصية[97]. ومن جهة أخرى، هو يقول كلاماً واضحاً في موضع متأخر من كتابه صبح الأعشى إن دور الوزير كان «في الواقع أكثر الواجبات سمواً في المقام والأعلى مرتبة»[98] واستعماله لكلمة «في الواقع» له أهميته هنا، ذلك أنها تشير إلى أن القلقشندي اضطر للاعتراف بحقيقة لا يستسيغها. فهذا التناقض الظاهر عند القلقشندي قد يكون نتيجة للتطور التاريخي المائع لدور الوزير الذي ألمحت إليه قبل قليل. «ففي أوائل الحكم العباسي لم يكن دور الوزير قد تحدد بوضوح[99]. وفيما بعد صعد وزراء كثيرون إلى مناصبهم من فئة الكتاب الإداريين؛ لذلك لم تكن الأدوار في بعض الأحيان متصلة ببعضها فحسب، بل كان رئيس ديوان الإنشاء يأتي أحياناً من الطبقة البيروقراطية، وكان في بعض الأوقات وزيراً.

لكن التمييز المتأخر بين واجبات الوزير وواجبات كبير الكتاب غدا أكثر تعقيداً ولا سيما حين ألغي المنصب الرسمي للوزير في عام 729هـ/ 1329م، على يد السلطان الناصر، برغم أن ذلك كان مدة محدودة غير معروفة[100]. ففي تلك المدة قسمت الواجبات بين كاتب السر ومنصب الناظر الخاص المحدث أخيراً، حيث تولى الكاتب القيام ببعض مهام الوزير مثل التوقيع في دار العدل، وأحياناً عبر الاستشارة وأحياناً أخرى دونها[101]، ولكن حين أعيد منصب الوزير، تحددت صلاحية كاتب السر في التوقيع، وانحصرت في التوقيع على «القصاص»[102]؛ إذن يتضح مما تقدم أنه بالرغم من كون منصبي الوزير والكاتب على جانب كبير من الأهمية إلا أن واجبات ومهام كل منهما كانت تلتقي طوراً وتتباعد طوراً آخر.

فيما يتبقى من هذا الفصل سوف نكرسه للحديث عن مسألة «السرية». وقد سبق لي أن أكدت أن الكاتب ملزم بعدم إفشاء السر شفاهة وأن كسب ثقة الحاكم تأتي في المقام الأول. لكن القلقشندي يقدم لنا وصفاً دقيقاً بارعاً حول كيفية حفظ المعلومات السرية كتابة، أحد المواقف الواجب اجتنابها هو ذلك الموقف الذي قد يتمكن فيه العدو من الاطلاع على مراسلات بين ملكين، على سبيل المثال، ومنع الرسالة من الوصول إلى مقصدها النهائي. لذلك فإن ثمة خطط طوارئ جاهزة دوماً، وتتألف من كتابة بمادة خاصة لا يمكن قراءتها على الفور أو الكتابة بنوع من الشِّفرة.

أما بخصوص الكتابة بمادة لا يمكن أن يقرأها شخص اعترض سبيلها، فيمكن القول: إن الرسالة عندما تصل إلى المتلقي المقصود، وبحسب اتفاق سابق بين المرسل والمرسل إليه، يقوم هذا الأخير بوضع مادة معينة على الكتابة، أو يقوم بمسحها بشيء ما أو قد يرفعها ويضعها في مقابل لهيب شمعة على سبيل المثال، وهناك طريقة أخرى تمثلت في الكتابة بحليب ممزوج بالأمونيا أو بعصير البصل، وهذه المادة لا تظهر للعيان إلا إذا كان خلفها لهيب شمعة، وثمة طريقة ثالثة تكون بالكتابة بالماء الممزوج بزيت الزاج (vitriol) لكي لا تظهر الكتابة وعندما تمسح بالماء الممزوج بعفص البلوط المعصور تظهر الكتابة واضحة وتقرأ، كما كانت مرارة السلحفاة تستخدم أيضاً في الكتابة التي لا تظهر للعيان إلا ليلاً، لكن الشكل الأكثر غرابة للكتابة -إذا صدقنا بأن

كل هذه الأساليب كانت تستخدم فعلاً- فهو الشكل الذي يستخدم في إرسال الرسائل عبر المسافات البعيدة. كان يصنع خليط مكون من جزأين متساويين من الليمون الأسود وسوق الحنظل ثم يقلى بزيت الزيتون، ثم يطحن ليصبح ناعماً تضاف إليه طبقة رقيقة من صفار البيض، بعدئذ يستخدم هذا المزيج للكتابة على جسم شخص ما، وينمو الشعر على الجلد دون أن تغطيه الكتابة. وحيث إن هذه الوسيلة لا تستخدم إلا حين يراد إرسال شخص ما حاملاً الرسالة إلى أماكن بعيدة، فإن الشعر يكون قد نما حين وصوله إلى مقصده ويمكن قراءة ما كتب على جسده [عبر تتبع شكل الشعر، إن صح القول][103].

وتكون الطريقة الثانية في الحفاظ على سرية المراسلات عبر «الشِّفرة» [أو ما كان يصفه العرب بقولهم: «التعمية» أي «جعل الكلام غير مقروء»]. تستخدم هذه الطريقة عموماً بعد أن يتفق المرسل والمتلقي على شكل للكتابة بخط اليد لا يعرفه أحد سواهما قد يطلع على الرسالة، وقد استخدمت طرائق مختلفة لتحقيق هذه الشِّفرة. وتمثل إحداها باستخدام حروف من لغات مختلفة لا يعرفها الشخص الذي قد يعترض سبيل المراسلات، لكن هذه الطريقة لا يستخدمها إلا أشخاص من ذوي العلم والمعرفة الواسعين، وهناك طريقة أخرى تكون عادة عبر الاتفاق على مواثيق سرية مثل استبدال حرف ساكن بآخر، وقد نظمت بعض القصائد بهدف تقوية الذاكرة أو كتابة الكلمات بترتيب راجع للوراء. وأما الطريقة الثالثة فكانت باستبدال مكان الحرفين الساكنين الأول والثاني في الكلمة، وإجراء المزيد من التغييرات على هذا النحو مع توالي كتابة الجمل[104]. وكان ثمة طريقة أخرى تمثلت في إعطاء الحروف الساكنة قيمة عددية. ثم يتبع القلقشندي بحثه هذا بدراسة مطولة ومدهشة حول كيفية فك رموز هذه الشِّفرة، فتبدو دراسته هذه أقرب إلى لعبة لغوية تتطلب الكثير من المهارة[105]. وليس ثمة شك أن العرب قد استفادوا كثيراً في هذا المجال من حبهم الكبير للغتهم، وهذه حقيقة تكرر ذكرها كثيراً في المؤلفات.

وختاماً، لقد ركزنا في هذا الفصل على السمات والخصائص الأخلاقية وعلى قواعد السلوك والصفات الداخلية للكاتب. وبيّنت كيف أن الكاتب يجب أن يمتلك

الموهبة الطبيعية في الكتابة كما قدمت لذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب، إلى جانب قائمة طويلة من المقتضيات غير القابلة للنقاش، وإلى جانب تلك «الخاصية الداخلية» هناك ضرورة وجود المقدرة على الاختراع والابتكار التي كما يقول ابن الأثير يمر دربها بعملية روحية ثم ركزت بمزيد من التفصيل على بعض الجوانب الشخصية للكاتب التي وصفها ابن شيث في كتابه «معالم الكتابة». يعد هذا العمل عموماً المقالة الأكثر أهمية حول هذا الموضوع في العصر الأيوبي، وذلك ليس بما يتضمنه من تفاصيل فحسب بل لأنه أيضاً يمثل تتويجاً لنشاط الكتَّاب على مدى قرون عدة في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث. صحيح أن عدداً من الأعمال الكبرى حول هذا الموضوع قد جاءت بعده بقرن أو قرنين من الزمان إلا أن أحداً من تلك الأعمال المتأخرة لم يتضمن الكثير من التفصيل حول بعض الموضوعات التي أوردتها في هذا الفصل، وتناولنا بالبحث أيضاً في هذا الفصل العلاقة بين منصب الكاتب السياسي ضمن هيكلية السلطة في العصر الإسلامي الوسيط ومنصبي الوزير والحاجب. وأخيراً تناولت بالدراسة موضوع السرية المهم وكيف كان الكاتب يحافظ عليها عبر طرائق متعددة في التشفير.

كانت الأهلية للثقة والقدرة على حفظ السر الصفتين الأكثر أهمية من الصفات الواجب توافرها في الكاتب، برغم أن المؤلفات التي وصلتنا لم تصفهما بهذا الوصف. فهما شرطان ليسا بحاجة إلى الذكر أو على الأقل ليسا بحاجة إلى التكرار، بل إن ما يثير الاهتمام أن لقب «كاتب السر» الرسمي لا يبدو أنه مستخدم رسمياً، وذلك حتى أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[106]. يقول مقدسي: إن هذا اللقب استخدم آنذاك في مصر مكافئاً في المنزلة والوضعية لكاتب ديوان الوثائق الرسمية (كاتب ديوان الإنشاء) في أماكن أخرى مثل دمشق وطرابلس.

يعد هذا الفصل متمماً لعملية استجلاء الشخصية الأخلاقية والمهنية للكاتب. ومن دون هذه الصورة لا تتضح أمامنا تلك الأهمية المتصلة بأدب الرسائل في المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث. فالدور الواضح جيداً والسلوك الأخلاقي الجيد

للكاتب هما العنصران الجوهريان في نجاح العمل الدبلوماسي والبيروقراطي في المجتمع الإسلامي، وما تظهره لنا المصادر الأولية هو أن المهارة الأدبية وقدرة الحكم على الأمور لم يكونا إلا جانباً واحداً فقط للكاتب الناجح، علماً أن ثمة مصادر تركّز على هذا الجانب أكثر من غيرها، والآن حان وقت التركيز بمزيد من التفاصيل على بعض الجوانب الأكثر أهمية في عمل الكاتب في كتابة الرسائل.

الهوامش

1- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 56، وأيضاً ابن خلف، مواد البيان، ص 47-46. الألفاظ التي يستخدمها هذان المؤلفان تركّز على النقطة التي تحدثت عنها في الفصل الثالث، أي، إن الإنشاء وكتابة الرسائل هما شيء واحد، أو هو نفسه على الأقل في عصر ابن خلف الذي استخدم لقب «كاتب الرسائل»، خلافاً للقلقشندي الذي استخدم اللقب «كاتب الإنشاء». وهذه ليست المرة الأولى التي نجد فيها بعض الخلافات بين الصيغة التي يستخدمها القلقشندي وتلك التي يستخدمها ابن خلف في نسخة Sezgin الصحيحة، وهذا ما يشير من ثم إلى أنهما استعانا بمخطوطين مختلفين. وقد بين Sezgin ذلك بالنص الآتي المأخوذ من ص 2 من مقدمته لذلك العمل، حيث يقول: «يتضح عند مقارنة الكتاب بصبح الأعشى أن المخطوط الذي استعان به القلقشندي أكثر اكتمالاً من نسخة Fatih [التي استخدمها Sezgin] وربما ليس بها ثغرات قط «وأحد هذه الأمثلة الدالة على تلك الاختلافات استخدام القلقشندي لكلمة «تعطفُ» بينما تستخدم نسخة Sezgin لكتاب «مواد البيان» (ص 47) الفعل «تبعدُ».

2- للاطلاع على قائمة كاملة ووصف مفصل لمسؤولياتهم انظر ابن خلف مواد البيان، ص 42.

3- See Makdisi, The Rise of Humanism, p. 280.

4- لهذا كله انظر القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 102-101.

5- نفسه، ص 102.

6- Sellheim and Sourdell, Katib art, p. 755.

7- نفسه، ص 102 - 103.

8- إن ترجمة كلمة «صفات» العربية بكلمة qualities لا تعطي عمق المعنى بالعربية. ففي أبسط عبارة يمكن القول إن الكلمة تنقل مغزى الوصف أو خصائص كاتب الإنشاء. بل أكثر من ذلك فهي تحمل معنى الخصال الحميدة التي بها يجب أن يعرف الكاتب.

9- هذه الصفات العشر جميعاً يمكن الاطلاع عليها في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، المجلد (1) ص 61.

10- هذه كلمات ابن خلف كما وردت في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، المجلد (8) ص 244.

11- ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ص 9-8.

12- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 96. ولا بد من القول عموماً: إن المصادر لا تشير إلا إلى عدد صغير جداً من الكتاب من غير المسلمين. ولا شك أن الأقباط في مصر قد أدوا دوراً مهماً في المجتمع

الفكري الإسلامي في أثناء هذه المدة برمتها ولم يكن من غير المعتاد أن نجد شخصيات أدبية قبطية بارزة شعراء، مثلاً. وابن ماماتي هو أحد العلماء وقد كتب مؤلفات حول تنظيم الديوان ونظم الشعر، وكان على صلة جيدة بالقاضي الفاضل. كما أن الأقباط قد عملوا في الدواوين، إلا أن الدلائل على تبوئهم مناصب رفيعة ضئيلة جداً في المصادر، انظر سلاّم، الأدب في العصر الأيوبي، ص 53.

13- ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل ص 9.

14- انظر القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 69 - 73.

15- ابن الأثير، كتاب المفتاح المنشا، ص 51.

16- See Latham, "Ibn al-Muqaffa and early Abbasid prose, p. 61.

17- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 81-73.

18- نفسه، المجلد (1) ص 84-83.

19- نفسه، المجلد (1) ص 113.

20- نفسه، المجلد (1) ص 111.

21- See Stern, Fatimid Decrees, pp. 85-7.

22- Hachmeier, "Private letters, official correspondence", p. 150.

23- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 123. يصف القلقشندي مجموعة من المعايير تثير الاهتمام بخصوص دور الجاسوس، فتضمن بعض الصفات المتوقعة مثل الأهلية للثقة والمكر والبداهة وكذلك بعض الصفات الأقل وضوحاً مثل الخبرة في الأسعار ومعرفة اللغات الأجنبية والولاء للدولة المتناسبة مع القدرة على تحمل العقاب دون البوح بمعلومات بخصوص الحاكم والبلد إذا ما هزمه العدو.

24- يقدم ابن الصيرفي وصفاً مفصلاً لدور رئيس ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي. فقد كان مشاركاً في كل مرحلة من مراحل إنتاج الرسالة يدقق الرسائل قبل الموافقة ويمررها للكتبة الأكثر جدارة بالثقة لينشئوا الردود على الرسائل الواردة ومن ثم يوقع الرسالة، ويمررها للشخص المسؤول عن وضع الختم عليها وما إلى ذلك. انظر ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ص 15.

25- هذا تعبير ونوع من الرسائل سبب لـ Bjorkmann الكثير من المصاعب. انظر، Beiträge، ص 21 وص 30. فإذا كانت كلمة «لطاف» مرادفة لكلمة «ملطّف» فالأمثلة عليها، عندئذ، قد توجد من العصر الفاطمي في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي، المجلد (8) ص 241 - 242، على سبيل المثال.

26- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1)، ص 130. يدرج مقدسي هذه الفئات كما يلي: الكاتب الذي يكتب النصوص الأصلية للرسائل، وتقليد المناصب ومنح الرتب، والكاتب الذي يكتب رسائل سيده («الكاتب المجهول») والكاتب الذي «يكتب عن غيره» فيكتب عن المسؤولين الحكوميين، والكاتب الذي يكتب البلاغات والرسائل الموجزة والنسخ، والكاتب الذي ينسخ نسخة جيدة الوضوح لما كتبه منشئ النص الأصلي وهو بحاجة إلى أن يكون خطه جميلاً، والكاتب الذي يقرأ ويدقق كل ما كتب في الديوان، فيصحح الأخطاء اللغوية وزلات القلم، وهكذا، والكاتب الذي يحتفظ بسجلات الديوان. انظر كتابه بعنوان Rise of Islamic Humanism، ص 281.

27- لهذا كله انظر Makdisi, Rise of Islamic Humanism، ص 281.

28- في مقدمته الوجيزة لكتاب «مواد البيان» يرى Sezgin أن التنقيح الذي أجراه القلقشندي على المراجع

obeikandl.com

العديدة التي اعتمدها في عمله هذا هو في أبعد تقدير أكثر اكتمالاً من أي تنقيح آخر وصل إلينا. ولكنْ ثمة اختلاف ضئيل يثير الاهتمام بين المخطوط الذي وضعه Sezgin وكتاب صبح الأعشى للقلقشندي بعد نشره هو أن ابن خلف يتحدث عن «الغريزة» على أنها جزء من الطبع والفطرة، بينما يقول القلقشندي: إنه كان يعطي تعريفاً لـ «الطبع». وهناك أيضاً اختلافات أخرى مثل استخدام ابن خلف لكلمة «الهيولة» [المادة] في مثل قوله «هيولة الكمال» [مادة الكمال] التي يستخدمها ابن خلف على أنها دلالة لـ «القريحة الفاضلة» [الموهبة الفطرية] و«الغريزة الكاملة» واستخدام هذا اللفظ، وهو ما لا نجده في تنقيحات القلقشندي حيث يستشهد بكلمة «المبدأ»، يؤكد فكرتي القائلة بأن جزءاً كبيراً من أفكار ابن خلف قد تأثر بالفلسفة اليونانية.

29- اللفظة العربية لكلمة Speech [الكلام] هي «تأليف الكلام»، وتتضمن اللغة المحكية والمكتوبة.

30- لهذا كله انظر ابن خلف، مواد البيان، ص 275.

31- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (2) ص 317.

32- نفسه، ص 315.

33- يستخدم مقدسي (في كتابه The Rise of Humanism, Appendix A, p. 359) لفظة «خطوات» بدلاً من لفظة «دروب». وأنا أفضل اللفظة الأخيرة، ولا سيما أن ابن الأثير يبدو أنه يقول «ليست الدروب بالضرورة مكملة لبعضها، وأي درب من الدروب الثلاثة ممكن، وحده، ولكن الدرب الثالث في النهاية، هو الذي يجلب المعرفة الصحيحة.

34- طريقة ابن الأثير في حجته هذه تثير الاهتمام لما فيها من عنصر التراتبية الهرمية، وهذا ما لم يلحظه القلقشندي الذي لا يستشهد إلا بالمستوى الأعلى، إن صح القول.

35- لهذا كله انظر ابن الأثير، المثل السائر، المجلد (1) ص 91-93.

36- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (2) ص 320 - 321.

37- بخصوص المرجع المطلوب انظر على سبيل المثال صبح الأعشى المجلد (6) ص 290 أو المجلد (7) ص 19 أو ص 87.

38- انظر مقدمة محقق كتاب «معالم الكتابة» ص 3 وسلّام، الأدب في العصر الأيوبي، ص 161. وبحسب سلّام، فقد ولد في عام 507/ 1114.

39- الموصلي، البرد الموشى، ص 232.

40- Sellheim and Sourdel, Katib art, p. 756.

41- الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 30.

42- نفسه، ص 32.

43- إن اهتمام ابن شيث بخضوع المرء لسيده موضح في وسائل شتى في المراحل الأولى من كتابه على وجه الخصوص، لكنه يحرص على التمييز بين «العلماء» الذين كان هو نفسه واحداً منهم بالطبع، فهو كاتب، وبين من ينتمون إلى الطبقة الدنيا من الناس. فمثلاً لفظة «خادم» (الحاكم) التي يستخدمها العلماء حين يتحدثون عن أنفسهم بمعنى «من يخدم حاكماً على قيد الحياة» بينما الأشخاص الذين هم خارج هذه الطبقة الاجتماعية إذا جاز لنا قول ذلك، يقال عنهم «عبيد» أو «مماليك». انظر ابن شيث، معالم الكتابة، ص 35. وانظر أيضاً Guo, "Arabic Documents from the Red Sea Port of Quseir", p. 172.

44- لهذا كله انظر ابن شيث، معالم الكتابة، ص 9 - 13.
45- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 101، وابن شيث، معالم الكتابة، ص 13.
46- ابن شيث، معالم الكتابة، ص 17 - 18 وص 22 - 23.
47- Heck, "The Epistemological Problem of Writing", p. 107. n. 48.
48- ابن شيث، معالم الكتابة، ص 21.
49- نفسه ص 20 - 21. ليس سهلاً الحفاظ على روح النص العربي الأصلي في أثناء الترجمة. فالأسلوب الذي يتبعه ابن شيث مليء بالسجع ويحوي كلمات وألفاظاً عفا عليها الزمان، ويتضمن أيضاً ثنائيات معينة وأشكالاً مكررة للأفعال. لكن فحوى النص تأخذ بالألباب، وهذه نتيجة نعتقد أن المؤلف كان يتمنى الوصول إليها حين كتب النص.
50- ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ص 22.
51- نفسه، ص 21.
52- نفسه، ص 13. يبدو أن كبير الكتاب كان لديه في الواقع قدر لا بأس به من حرية التصرف والاختيار في «تثقيف» الحاكم. انظر على سبيل المثال القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 106.
53- ابن شيث، معالم الكتابة، ص 21.
54- الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، ص 7.
55- نفسه، ص 7.
56- نفسه، ص 8.
57- نفسه، ص 13. تجدر الإشارة هنا إلى مراتب الكتاب كما ذكرها ابن الصيرفي. ففي التراتبية يأتي في المقدمة رئيس الديوان يليه الكاتب الذي يكتب بالنيابة عن الملك إلى ملوك آخرين وأولئك الذين يتكلمون لغة مختلفة أو لهم عقيدة دينية مختلفة. ويأتي بعده في الترتيب كاتب الإنشاء يليه الكاتب المسؤول عن التراسل مع رجال الدولة والأشخاص ذوي المقام الرفيع وكتب التعيين للأشخاص ذوي المناصب الأقل أهمية. انظر المصدر نفسه ص 22، 25، 27.
58- نفسه، ص 23.
59- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (9) ص 18، بخصوص التعيينات لمنصب «داعي الدعاة».
60- نفسه، ص 26.
61- ابن خلف، مواد البيان، ص 71.
62- يقول محقق كتاب ابن أبي ربيع إن هذا الدور يشبه ما هو معروف في هذه الأيام برئيس التشريفات أو رئيس المراسم. ولكن يبدو أن هذا التشبيه مبالغ فيه قليلاً. انظر أحمد محمد بن أبي الربيع، سلوك الملك في تدبير الممالك، ص 37-36.
63- نفسه، ص 37. لا بد أن عمره، كما يقول هلال الصابئ، بين الثلاثين والخمسين، وإلا فلا بد أن يكون «رجلاً كهلاً قوياً اختبر الحياة وعاركها»، انظر هلال الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 59.
64- Sourdel, "Hadjib" art. P. 45.
65- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (9) ص 16-14.
66- Sourdel, "Hadjib" art., p. 45.
67- نفسه، ص 46.

68- نفسه، ص 46.

69- http:/ / muslimheritage.com. Publication No. 4086 accessed 23 October 2006.

70- Zaman, “Wazir” art., p. 185.

71- نفسه، ص 185.

72- ابن الصيرفي، القانون في ديوان الرسائل، مقدمة المحقق، ص 13.

73- Edde, “Wazir” (The Ayyubid period) art. P. 190 (العصر الأيوبي). كان الحال مختلفاً في إسبانية الإسلامية، انظر Carmona, “Wazir (Muslim Spain)”, art, pp. 191-2.

74- Edde “Wazir” art, p. 191.

75- الأنواع الثلاثة الأخرى هي: الكاتب العسكري، الكاتب القانوني وكاتب الضرائب. انظر ابن أبي ربيع، سلوك الملك، ص 37-36.

76- نفسه، ص 36.

77- هلال الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 44-43.

78- الشكعة، الأصول الأدبية، ص 94.

79- Adamec, Historical Dictionary of Islam, Lanham Scarecrow Press, 2001, p. 270.

80- انظر الفصل الثالث المتقدّم.

81- العماد «الوزارة عند الفاطميين» ص 13.

82- نفسه، ص 14.

83- للاطلاع على وصف ممتاز للولاية التي قضاها النشو al-Nasw في هذا المنصب انظر Little, “Notes on the early Nazar al-haşş”

84- نفسه، ص 241.

85- نفسه، ص 240.

86- العماد، الوزارة عند الفاطميين، ص 18.

87- نفسه، ص 47. يتحدث العماد عن مرتبتين مختلفتين للوزير في العصر الفاطمي: أحد هاتين المرتبتين «وزير التنفيذ» المسؤول عن تنفيذ رغبات الخليفة وليس له أن يقوم بمبادرة من تلقاء نفسه. أما الوزير الثاني فهو «وزير التفويض» الذي كان «يمنح سلطة للمبادرة» إن رأى ذلك لزاماً، إلى القيام بإصلاحات تضمن سلاسة عمل الدولة من جباية الضرائب إلى الدخول في الحرب» والمهم في هذا الأمر أن هذا الوزير الأخير كان يملك سلطة القلم وسلطة السيف معاً. لمعرفة المزيد انظر العماد «الوزارة عند الفاطميين» ص 49-46.

88- هلال الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص 64-63.

89- Sellheim and Sourdel, “Katib”art., p. 756.

90- Little, “Notes on the early Nazar al-Hass”, p. 241. حيث يستشهد بالصفدي. ولكن لا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن هذه الكلمات قالها وزير سابق شعر بالغبن بعد أن ألغي منصبه. لذلك يجب ألا يؤخذ كلامه على محمل الجد وليس كما يبدو أنه جدير بالاهتمام.

91- انظر الظاهري، كتاب زبدة كشف الممالك، ص 93.

obeikandl.com

92- نفسه، ص 94-93.

93- نفسه، ص 94.

94- نفسه، ص 99.

95- رئيس ديوان الإنشاء، أو لنقل الكاتب الخاص، وقبيل عهد الظاهري في أقله، كان يعرف بكاتب السر أو «كاتم السر» انظر المصدر نفسه ص 98. ولكن يبدو أن الأدوار قد توزعت في العصرين الأيوبي والمملوكي. ففي القسم المخصص للتراجم في كتابه، يدون الموصلي بعض أشهر كتبة السر وكتبة الإنشاء، لكن التواريخ تتداخل في بعضها. وإضافة إلى ذلك يبدو أن توصيفه للأفراد في كل فرع من هذين الفرعين قلما نجد فيها اختلافاً. ويبدو أن دور كاتب السر ينحو أكثر نحو الدور السياسي أو الدبلوماسي أو البيروقراطي، بينما دور كاتب الإنشاء ينحو أكثر نحو الأدب كما يتضح من التفاصيل المقدمة حول كل من هؤلاء الكتبة. انظر الموصلي، البرد الموشى، ص 207.

96- الظاهري، كتاب زبدة كشف الممالك، ص 99 - 100.

97- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (1) ص 101.

98- نفسه، المجلد (4) ص 29.

99- العماد، الوزارة عند الفاطميين، ص 98.

100- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (4) ص 29. والمؤسف أن القلقشندي لا يعطي تواريخ إعادة تأسيس الدور السابق، فهو يقول فقط: «عندما عادت الوزارة بعد ذلك».

101- See also Little, “Notes on the early Nazar al-hass,” p. 241.

102- القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (4) ص 29. يميز القلقشندي بين واجبات الوزير بحسب كونه «رجل قلم» أو «رجل سيف» فإذا كان من الصنف الأول فهو مسؤول عن ثلاث مهام للوزير هي الناظر، التنفيذ، المحاسبة. وإن كان رجل سيف يعهد إليه بالمهمتين الأوليين من تلك المهام، أي ليس له علاقة بالنواحي المالية للإدارة التي هي بالطبع عنصر متكامل، ومع ذلك يمكن تجزئته من واجبات الكاتب.

103- نفسه، المجلد (9) ص 229 - 230.

104- هذا الأسلوب يذكرنا بـ «العامية القاسية» عند طبقة من الشحاذين نشأت تحت الأرض في لندن في القرن العشرين (م). كانت الكلمات تنشأ بحيث توضع بداية كلمة واحدة، وربما مقطع كامل من الكلمة، في نهاية الكلمة ذاتها، وربما تعطى بعدئذ شيئاً من التأنق في اللفظ.

105- لهذا كله انظر القلقشندي، صبح الأعشى، المجلد (9) ص 230. الشيء المؤسف أنني لم أعثر على مقالة (Bosworth 1963) إلا متأخراً، فلم أستطع أن أتحدث عن مبحثه بخصوص التشفير وفك التشفير في هذا الكتاب.

106- Makdisi, The Rise of Humanism, p. 279.

Opeikandi.com